

نصوص قصصية

من روائع الأدب الأفريقي

جمع وترجمة سمير عبد ربه

نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقي

جمع وترجمة
سمير عبد ربه



نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقي

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٦٨ ٦

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية في أعوام متعددة.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

مقدمة المترجم

بدأت القصة في القارة الأفريقية السوداء بتلك الحكايات الشفاهية التقليدية ذات الجذور المتعمقة في الفولكلور وأساطير الأقدمين، والتي ظل الناس يتناقلونها من جيلٍ إلى آخر. ورغم أن هذا النوع من الأدب الشفاهي ما زال موجودًا حتى الآن بسبب تعدد اللغات الأفريقية الدارجة غير المكتوبة إلا أن انتشار اللغة الإنجليزية والفرنسية بعد الاستعمار، وولادة جيل جديد من الأفارقة ممن يجيدون لغة المستعمِر، قد ساعد في خلق القصة المكتوبة المتعارف عليها. غير أن ذلك النوع الأدبي الجديد ظل متراجعًا أمام الأشكال الأدبية الأخرى كالرواية والمسرح، ولنأخذ مثلًا بالروائي النيجيري «تشينوا أتشيبي» الذي ازدهرت أعماله الروائية وتراجعت أمامها الأعمال القصصية؛ بسبب حركة الترجمة التي وجدت في أعمال «أتشيبي» وغيره من المبدعين الذين يكتبون بالإنجليزية فرصة للترجمة إلى عدة لغات أخرى دون أن تتاح لها (أي حركة الترجمة) المقدرة على ترجمة القصة القصيرة المكتوبة باللغات الأفريقية الدارجة، كما كان تحويل روايتين من روايات «تشينوا أتشيبي» إلى أعمال سينمائية سببًا آخر في انتشار الرواية وتراجع القصة القصيرة، بالإضافة إلى سبب ثالث وهو تدريس بعض الأعمال الروائية في مدارس غرب أفريقيا.

أما عن المسرح فإن انتشاره وتراجع القصة القصيرة أمامه يرجع إلى أن المسرح يعتمد في توصيل رسالته على الأصوات التي تردد كلمات المسرحية وعلى آذان المستمعين — بما فيهم أولئك الذين لا يجيدون القراءة — أكثر من اعتماده على الكلمة المطبوعة، وذلك ما حدث مثلًا مع «وول سوينكا» كاتب الدراما أو عاشق المسرح كما يحب أن يُطلِق على نفسه، الذي تمتع بشعبية كبيرة بين أبناء قومه عند عرض أعماله على خشبة المسرح. والجدير بالذكر أن «سوينكا» يتمتع بالشعبية الكبيرة نفسها ليس فقط بين أبناء قومه، وإنما في معظم العواصم الأوروبية والأمريكية بسبب ظهور أعماله المسرحية فوق خشبات مسارح

تلك البلاد، علاوة على ما ذكرناه من قبل، وهو حركة الترجمة التي ساهمت — بشكل كبير — في التعرف على جميع إبداعاته الروائية والمسرحية وحتى قصائده الشعرية، ولم تكن جائزة نوبل العالمية التي حصل عليها في العام ١٩٨٦م تُعَد اكتشافًا لذلك المُبدِع؛ لأنه كان ذائع الصيت قبل الحصول على الجائزة؛ مما يؤكد أهمية دور الترجمة في الحياة الثقافية والمعرفية بشكلٍ عامٍّ، وهنا أجد لزامًا عليَّ أن أذكر الدكتورة ميرفت حاتم أستاذ الأدب النسائي بجامعة واشنطن، وأتوجه لها بالشكر والتقدير؛ لما قدمته إليَّ من خدمة عظيمة حين تكرَّمت وأرسلت إليَّ من أمريكا في عام ١٩٨٤م رواية مع رسالة تقول: «إنها رواية مهمة وشيقة لكاتب أفريقي شهير يتردَّد اسمه في الأوساط الأدبية منذ عشرين عامًا، وأخشى ألا تكونوا قد سمعتم به في القاهرة!»

وكان صاحب الرواية هو «وول سوينكا» الذي — والحق يُقال — لم أكن سمعت عنه من قبل، والذي حصل على جائزة نوبل في الآداب بعد عامين من تعرُّفي عليه؛ مما جعلني أشفق على حركة الترجمة عندنا، والتي نعرف جميعًا أسباب تراجعها رغم أن في بلدنا عددًا كبيرًا من المترجمين الأكْفاء الذين يتمتعون بثقافة عالية، وفي مقدروهم — لو توفر لهم التقدير المناسب — أن يساعدونا في اللحاق بقطار المعرفة الذي يسير بسرعة فائقة.

حدث الشيء نفسه في أفريقيا الفرانكفونية التي يكتب مبدعوها باللغة الفرنسية، فنجد الروائي «كامارالار» من السنغال، والروائي «يامبو أولوجيم» من مالي، وقد تمتَّعَا بشهرةٍ كبيرةٍ لدى قُرَّاء الفرنسية خاصة بعد حصولهما على بعض جوائز الأدب الفرنسي؛ ومن هنا ظل كاتب القصة الأفريقي غير معروف في معظم الأحوال للأسباب التي ذكرناها؛ وكان ذلك بالطبع يُعَد خسارة كبيرة للقارئ؛ لأن القصة الأفريقية الحديثة تنتمي إلى الأدب التقليدي الشفاهي القديم الذي يلقي الضوء على تراث وعادات تلك القارة متعددة الثقافات.

لكن تراجع القصة القصيرة لم يدم طويلًا حين تيقن مبدعوها أن كتاباتهم باللغات الدارجة لا تجاوز الحيز الضيق الذي يعيشون فيه، ولا بد لهم من الكتابة بالإنجليزية أو الفرنسية اللتين أصبحتا اللغتين الرسميتين في معظم البلدان الأفريقية؛ وبالتالي بدأت القصة القصيرة في الانتشار، وكان لصدور بعض الدوريات الخاصة بنشر إبداعات القصة القصيرة دور كبير في ذلك الانتشار، ونُشير هنا إلى أهم تلك الدوريات وهي مجلة Spear في نيجيريا ثم مجلة Drum في جنوب أفريقيا في وقت واحد، والتي صدرت أول الأمر عام ١٩٥٠م، وكان «حزقيال مفاليلي» من جنوب أفريقيا — الذي يلقبونه بعميد الأدب

الأفريقي — واحدًا من الذين عملوا على النهوض بالمجلة والتركيز على نشر القصص القصيرة.

قال «مفاليلي» في رائعته The African Image: «إن ظهور مجلة Drum كان إطلالة هائلة ومثيرة عن نشاط كتابة القصة القصيرة، وقد ساهمت المجلة في رسم صورة توضيحية عن القصة القصيرة في أوساط المتحدثين بالإنجليزية.»

أشار «مفاليلي» أيضًا إلى قصص المجلة قائلًا: «إنها قصص قصيرة تجنح للهروب من الواقع إلى الخيال.»

أما «توم هوبكنسون» — الذي تولى رئاسة تحرير المجلة في بداياتها — فقد علق في أحد المقالات قائلًا: «حين بدأت في مباشرة عملي بالمجلة كان أول ما شدني وأدهشني هو ذلك الكم الكبير من القصص المرسَلة، وبخاصة حين تم الإعلان عن مسابقة القصة القصيرة؛ ولأنني أميل نحو الدقة في التقييم فقد قرأت كل القصص ووجدت أن ست قصص منها تحكي عن الحب، وواحدة أو اثنتين عن الطبيعة والأسود والنمور، وأما غالبية القصص فكانت عبارة عن خيالات عن العنف والشراسة والوحشية، وتتمركز في معظمها حول حياة الأشقياء في الأقسام الإدارية بالمدينة، أو في محاولة إيجاد مبرر يمنح الصفة الشرعية للعنف كما يحدث في حلبات الملاكمة .. كان الموضوع الغالب — بشكل أو بآخر — هو الخراب والتدمير والهدم.»

وفي مجموعة مقالاته Home amd Exile عَلَّق «لويس كوسي» على قصص مجلة Drum قائلًا: «بالرغم من الأكاديمية المصاحبة لمجلة Drum — على الأقل في بداياتها — فإن أهمية المجلة لا يجوز إنكارها، ويكفي أنها كانت السبب الرئيسي وراء ظهور وانتشار العديد من كُتَّاب القصة الذين يتمتعون بموهبةٍ كبيرةٍ في معظم أرجاء القارة الأفريقية، وبشكل خاص في جنوب أفريقيا.»

لم تكن مجلة Spear في نيجيريا ومجلة Drum واسعة الانتشار وحدهما في ذلك المجال؛ حيث ظهرت مجلات أخرى في مختلف عواصم القارة الأفريقية كان لها الفضل أيضًا في انتشار القصة القصيرة، غير أن تلك الإصدارات انتهجت شكلًا مختلفًا، وراحت تتوجه إلى قارئ واعٍ وعلى دراية بشئون حياته كما حدث مع مجلة Black Orpheus الصادرة من نيجيريا والتي توقفت عن الإصدار مدة طويلة، ثم عادت للظهور مؤخرًا على يد الكاتب المسرحي النيجيري «جون بيير كلارك»، ثم مجلة Transition في أوغندا، ومجلة Darlite في تنزانيا، وكذلك مجلة Okyeame في غانا.

هكذا بدأت القصة في الذيوع من خلال تلك الدوريات التي كانت السبب الرئيسي في ظهور كوكبة رائعة من كُتَّاب القِصة في مختلف البلدان الأفريقية، والتي اخترنا منها بعضًا من أولئك المبدعين في هذه المجموعة التي بين أيدينا.

أثناء اختياري لقصص المجموعة حاولت — قدر استطاعتي — أن يجمعها خط واحد ومشترك يتمثل في ثلاثة محاور:

(١) الهروب الرومانتيكي من الواقع إلى عالم الخيال.
(٢) الاحتجاج.
(٣) السخرية التي هي مزيج من الاحتجاج والقبول.

لقد ابتدع الكاتب الأفريقي شكلًا جديدًا في القصة القصيرة، ولنضرب مثالًا على ذلك بأحد قصص هذه المجموعة، وهي قصة «سارزان» للكاتب السنغالي المعروف «بيراجو ديوب»؛ حيث الاستخدام الرائع للشعر والنثر معًا، والتي تذكرنا بالكاتب الأفروأمريكي «جين تومر» في رائعته Cane.

تضم المجموعة ثلاث قصص من جنوب أفريقيا: الأولى بعنوان «الياقوتة» للكاتبة «نادين جورديمر»، ثم قصة «مسز بلوم» لصاحبها «حزقيال مفاليلي»، وأخيرًا قصة «مسألة تذوق» للمبدع المتميز «أليكس لاجوما» وسيجد القارئ في بداية كل قصة ملاحظات إضافية أو نبذة متواضعة تتعلق بكل كاتب؛ لعلها تساعد في إلقاء بعض الضوء على شخصية الكاتب. والملاحظ في تلك القصص الثلاث أن الاحتجاج هو القاسم المشترك بينهم، مع أهمية الإشارة إلى أن السخرية في قصة «مفاليلي» تشغل حيزًا أكبر.

هذه المجموعة ليست إلَّا محاولة للإشارة إلى ما حدث من تطور للشكل الفني للقصة القصيرة الأفريقية، وسنترك للقارئ اكتشاف مواطن الجمال والإبهار بنفسه، لكنني في النهاية لا بد وأن أشير إلى أن قصص هذه المجموعة وغالبية أشكال الكتابة الأفريقية الأخرى نوع من الهجين الأدبي؛ أي إنها ترتكز على خلفيتين ثقافيتين مختلفتين كل الاختلاف (أفريقيا والغرب)، وهنا يمكن القول إن أفريقيا والغرب هو الموضوع الغالب على معظم قصص هذه المجموعة، ذلك الموضوع الذي يُمثِّل تصادم الحضارتين الموضوع الأكثر شيوعًا في الأدب الأفريقي بمختلف أشكاله، ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح في التصادم الذي يُمثِّل الدِّين الغربي في قصة «أبيوسيه نيقول» الرائعة «امرأة متزوجة حقًّا» أو في نوع آخر من التصادم يتمثل في التعليم الغربي كما في قصة «لقاء في الظلام» للكاتب الكيني

الشهير «جيمس نجوجي» أو «نجوجي واثيونجو» الاسم الجديد الذي اختاره لنفسه بدلًا من الاسم الغربي «جيمس» أو ذلك التصادم الذي يتعرض لإظهار أوروبا نفسها كما في قصة «سارزان» وقصة «فتاة سوداء»، وكذلك في قصة «الحجرة المظلمة».

مسز بلوم

حزقيال مفاليلي
جنوب أفريقيا

«حزقيال مفاليلي» المولود في العام ١٩١٩م بأحقر أحياء بريتوريا؛ هو واحدٌ من أهم مبدعي جنوب أفريقيا، ويُطلقون عليه لقب عميد الأدب الأفريقي، كما أنه من أكثر الكُتَّاب الأفارقة إنتاجًا؛ ففي العام ١٩٥٩م كتب أول أعماله تحت عنوان: «نزولًا إلى الشارع الثاني»، وهي عبارة عن سيرة ذاتية عن حياته في جنوب أفريقيا، ثم تلاها في العام ١٩٦١م بمجموعته القصصية «الأحياء والموتى»، وفي عام ١٩٦٢م كتب مجلدًا رائعًا في نقد الأدب الأفريقي عنوانه «الصورة الأفريقية»، ثم مجموعة قصصية عام ١٩٦٧م بعنوان In Corner B، وفي العام ١٩٧١م كتب روايته المهمة «الهائمون The Wanderers» .. عمل د. «مفاليلي» أستاذًا مساعدًا للأدب الإنجليزي في جامعة دينفر.

كانت «مسز بلوم» تحب الكلاب والأفارقة، وتؤمن بضرورة أن يلتزم كل شخص بالقانون .. تلك كانت ثلاثة أشياء كبيرة مهمة في حياة المدام التي أعمل في خدمتها بمنطقة جرين سايد، والتي لا تبعد كثيرًا عن جوهانسبرج .. كان العمل الأول لي كطباخة ومنظفة للملابس مع رجل أبيض وزوجته في شمال بارك تاون، لكنهما كانا يشربان كثيرًا، ولا يدفعان لي أجري؛ مما جعلني أقول لنفسي: لا، سوف أترك هذا الرجل السِّكِّير وزوجته السِّكِّيرة.

تركت العمل عندهما فعلًا، وقد كنت غاضبة بشدة في ذلك اليوم كما يحدث حين يلامس الحديدُ الساخن ماءً باردًا، وفي المرة الثانية عملت طاهية بأحد البيوت في بيلجرافيا، وكان عليَّ أن أقوم بتنظيف خمسة أطفال لم يحسنوا تربيتهم؛ إذ كثيرًا ما كانوا يدعونني بالفتاة السوداء دون أن أجرؤ على الكلام؛ لأن أمهم كانت تسمعهم ولا تقول شيئًا .. كنت حديثة العهد في تجربة الابتعاد عن بلدتي فوكينج القريبة من روستنبرج، وتتملكني رغبة شديدة في التعلم ومعرفة شيء ما عن أولئك الناس ذوي البشرة البيضاء، لكن الشيء الذي قادني للجنون وجعلني أحزم أشيائي وأرحل هو ذلك الرجل الذي اعتاد زيارتهم، قالوا إنه ابن عم أو شيء كهذا، وقد كان يأتي إلى المطبخ كثيرًا محاولًا إضحاكي وهو يربت فوق أردافي، وحين أخبرت السيد لم يهتم. وعاود الرجل فعلته مرة أخرى؛ وعندئذٍ سألت المدام أن تعطيني نقودي وتدعني أذهب.

هكذا كانت الشهور التسعة الأولى بعد مغادرتي فوكنج لأول مرة من أجل العمل في جوهانسبرج، ولم أكن أنا الوحيدة التي غادرت بلدها؛ إذ إن كثيرًا من الفتيات والفتية والنساء الشابات من فوكنج، وزيرست، وشوبنج، وكوستن، وأماكن أخرى عديدة قد جئن للعمل في المدن؛ ولذلك كانت الضواحي مليئة بالسود، وكان معظمنا ممن تجاوزوا المستوى السادس؛ وهكذا تعلمنا مزيدًا من الإنجليزية في الأماكن التي عملنا بها .. لم نكن نحب العمل لدى الفلاحين البِيض؛ لأننا نعرف كثيرًا عنهم من خلال المزارع القريبة من بيوتنا، كما أنهم لا يدفعون أجورًا معقولة ويتسمون بالقسوة.

كان معظمنا يعود إلى بلدته في إجازة عيد الفصح الطويلة لرؤية الأهل، وتناوُل الدجاج والسبانخ الجافة، واحتساء اللبن الرائب، وكنا نأخذ معنا السكر، واللبن المركَّز، والشاي، والقهوة، والحلوى، وبودرة الكاستر، والطعام المعلَّب.

كانت «شيمين» تعمل خادمة في البيت المجاور تمامًا لبيت «مسز بلوم»، فأخبرتني عن حاجتها لخادمة .. كنت سعيدة جدًّا بعملي مع «مسز بلوم» وابنتها «كيت» في جرين سايد، ولم يكن العمل سيئًا كما كان في أماكن أخرى، وحتى «شيمين» لم تكن تشكو كثيرًا .. كانوا يدفعون لنا ستة جنيهات في الشهر بالإضافة للطعام والإقامة في حجرة الخدم، لكننا — من حين لآخر — كنا نشكو بطريقة أو بأخرى.

كنا نلتقي في أمسيات يوم الخميس؛ حيث تأتي كل النساء السود من مختلف الضواحي، ونتبادل أحاديث كثيرة عن الناس الذين نعمل عندهم، وعن أمراضهم وخطاباتهم ومحاصيلهم السيئة، وعن الأخت التي طلبت زِيًّا وكُتبًا ومصاريف المدرسة ..

كانت كل واحدة منا تتحدث عن السيد أو السيدة التي تعمل عندهما، وعن كرم بعضهم أو بخل البعض الآخر فيما يتعلق بالطعام أو النقود، وعن الأغبياء منهم أو عديمي الإحساس، وعن أولئك الذين يقتلون أنفسهم ويقتلون بعضهم البعض، وعن القذرين منهم، وأشياء أخرى كثيرة لا أستطيع أن أذكرها كلها.

كانت أمسيات يوم الخميس هي وقت راحتنا، ولم نكن نكتفي بالثرثرة والكلام عن البِيض الذين نعمل عندهم؛ وإنما كنا نتجول لمشاهدة المحال التجارية، ونذهب لنادي المرأة لرؤية أصدقائنا الأولاد، وكان البعض منا يذهب لرؤية البروجيكتور السينمائي، لكننا كنا جميعًا نبدو متأنقات بملابسنا التي اشتريناها من الرجال السود الذين يبيعون البضائع للخدم في الضواحي بالتقسيط .. كنا نرتدي تلك الملابس بالطريقة نفسها التي تقوم بها السيدات والبنات البِيض؛ فنبدو متأنقات حقًّا، وحين كانت تنظر إلينا امرأة بيضاء بدهشة كنا نشعر بشيء جميل ونضحك كثيرًا، حتى نكاد نقع على الأرض.

سألتني «مسز بلوم» في أول يوم جئت فيه للعمل عندها: بماذا دعتك الفتاة في البيت المجاور لنا؟

أجبت: «جين».

– أليس لك اسم أفريقي؟

– نعم، «كارابو».

– حسنًا، سوف نناديك «كارابو».

كانت تدرك أهمية الاسم ودلالته؛ فشعرت بالبهجة لأن كثيرًا جدًّا من البِيض لا يهتمون بأسماء السود؛ كما أنني لا أسمع اسم «كارابو» إلَّا حين أكون في بلدي أو عندما أتحدث مع أصدقائي.

أخبرتني «مسز بلوم» بما يجب أن أفعله، فحدثتني عن الوجبات وأوقاتها، وعن الغسيل، ومكان كل الأشياء التي سأستخدمها حتى قالت: إن ابنتي في المدرسة وسوف تكون هنا في المساء.

ثم أضافت: عندما تأتي ابنتي سوف تخبرك ببعض الأشياء التي يجب أن تقومي بعملها كل يوم.

كانت «شيمين» — صديقتي في البيت المجاور — قد حدثتني عن «كيت» الابنة، وكم أنها تبدو قاسية، كما حكت لي عن السيد «بلوم» الذي قتل نفسه برصاصة من مسدس في المنزل القديم عند نهاية الشارع قبل أن يغادروه ويأتوا إلى هذا المنزل.

إن «مسز بلوم» امرأة طويلة، وليست نحيفة أو ممتلئة، تتحرك وتتكلم ببطء، ووجهها يشع بالحكمة، كما تشير جبهتها إلى قوة الشخصية وعدم الخوف من أي شيء. كانت تدخن كثيرًا فتبدو كالخشب المبلل الذي يزيد اشتعالًا مع اللهب، وسرعان ما يتوقف عن الاحتراق، أما عيناها فمُتَورِّمتان دائمًا عند الجفنين السفليين وكأنها لم تنم عدة ليالٍ أو كأنها ضفدعة كبيرة .. حين كانت تتحدث إلى أي شخص فإنها تنظر مباشرة إلى عينيه، وهكذا كانت تفعل معي؛ مما جعلني أخشاها في البداية، غير أنني اعتدت عليها بعد ذلك، لم تكن السيدة امرأة كسولًا، وعرفت أنها تقوم بعمل أشياء كثيرة في المدينة وفي الضواحي.

قالت لي «مسز بلوم» قبل أن ألتقي بكيت للمرة الأولى: لا تبالي كثيرًا؛ فإن «كيت» تتصرف أحيانًا بطريقة غريبة مع الناس لأسباب تافهة، لكنها سرعان ما تصبح طبيعية.

أحببت «كيت» كثيرًا كما بادلتني هي الحب نفسه، وكانت تخبرني عن أشياء كثيرة لا تتفوه بها النساء البِيض للخدم السُّود عادة، وحدثتني عن الأشياء التي تحبها، والأشياء التي تكرهها، وعمَّا تفعله أمها أو لا تفعله، غير أنني لم أكن سعيدة في البداية، وحاولت كثيرًا أن أوقفها، لكنني مع الوقت توقفت عن محاولاتي، ولم أعد أهتم.

إن وجه «كيت» متشابه — إلى حدٍّ كبيرٍ — مع وجه أمها، وكتفاها مستديران وقويان، لكنها تتحرك بسرعة أكثر من أمها .. عندما جاءت إلى المنزل في عطلة نهاية الأسبوع سألتها: لماذا ما زلت تذهبين إلى المدرسة وأنت كبيرة؟

ضحكت وحاولت أن تشرح لي أنها تذهب لمدرسة الكبار الذين انتهوا من مدرسة الصغار؛ حيث تدرس الطهي وأصناف الطعام .. كان بمقدورها أن تشرح ما لا أستطيع أنا أن أشرحه.

منذ بداية عملي عند «مسز بلوم» لم تتوقف «كيت» عن تعليمي طريقة الطهي وإعداد مختلف أنواع الطعام، وأثناء وجود «كيت» في المدرسة العليا كانت السيدة تعلمني قراءة كتب الطهي؛ فعانيت صعوبة بالغة في البداية، وكنت أفهم ببطء ربما أبطأ من عربة الثور، لكنني تعلمت المزيد مع مرور الوقت، حتى إن «كيت» عند حضورها كانت لا تفعل شيئًا سوى أن تترك لي ورقة خاصة بنوع الطعام وكيفية إعداده، وما عليَّ بعد ذلك إلا أن أبدأ مباشرة في الطهي .. قالت «كيت» يومًا ما: إنني أصلح للطهي في أحد الفنادق الكبيرة، وكانت المدام توافقها الرأي نفسه، غير أن الفكرة لم تلقَ هوًى في نفسي؛ لأن الطهي في الفندق مثل إطعام الثيران حيث لا أحد سيقدم لك الشكر .. استطعت بعد أشهرٍ قليلة أن أقوم بعمل طعام يوم الأحد، ثم استطعت أيضًا أن أتولى عمل الأطباق الخاصة بضيوف المدام و«كيت».

لم تعلمني المدام الطهي فقط، وإنما علَّمتني أيضًا كيفية الاعتناء بالضيوف، وكانت تمدحني عندما أقوم بواجبي على أكمل وجه، وذلك ما لم يكن يحدث لي مع البِيض الذين عملت عندهم من قبل .. كانت المدام تعقد دراسات مسائية للخدم من أجل تعليمهم القراءة والكتابة بمشاركة امرأتين من جرين سايد تعلَّما في بهو الكنيسة؛ مما جعلني أتساءل عما يدور في رءوسهن.

لم تتوقف «كيت» عن إخباري بالمزيد عن أمها حتى قالت لي يومًا: إن أمي تحضر كثيرًا من الاجتماعات واللقاءات.

سألتها قائلةً: أي نوع من اللقاءات؟

أجابت: من أجل شعبك.

لم أفهم إجابتها، فقلت متسائلة: ولماذا تعقد اللقاءات من أجلهم؟ إن شعبي وأهلي يعيشون في فوكنج بعيدًا عن هنا، فهل تعرف هي ما يريد أبي أو أمي أن يعبِّرا عنه؟ وهل تعرف شيئًا عن شعورهما أو شعور أمثالهما؟ لماذا تعقد اللقاءات من أجلهم، وهم يملكون أفواهًا ويستطيعون الكلام عندما يريدون؟

رفعت «كيت» كتفيها ثم قامت بخفضهما، وقالت: أوه، كيف أستطيع أن أشرح لك يا «كارابو»؟ حين قلت شعبك لم أكن أقصد عائلتك فقط، وإنما السود في كل مكان بالبلد.

قلت: وما الذي يريد السُّود أن يقولوه؟

رفعت «كيت» كتفيها مرة أخرى وتنفَّست نفسًا عميقًا، ولم تجد ما تقوله.

سألتها: مَن يكون معها في تلك الاجتماعات؟

أجابت: آخرون ممَّن يفكرون مثلها.

قلت: هل تقصدين أن هناك آخرين في العالم ممن يفكرون في الأشياء نفسها؟

أومأت برأسها، فقلت: أية أشياء؟

– بإمكان القليل منكم أن يشاركوا في حكم هذا البلد؛ وعندئذٍ يستطيعون المطالبة بمزيد من النقود في مقابل ما يفعلونه للرجل الأبيض.

– لقد فهمت الآن، ولكن لماذا تكتب سيدتي دائمًا على الآلة الكاتبة طوال الوقت، وكل يوم تقريبًا؟

– إن أمي تؤلف كتبًا.

أشرت إلى الأرفف المليئة بالكتب، وقلت: أتعنين كتبًا مثل تلك الكتب؟

أجابت «كيت»: نعم، لقد كتبَتْ كثيرًا من الكتب بالإضافة إلى المقالات التي تنشرها في الصحف والمجلات، والتي تتضمن دفاعًا عن السود، وكثيرًا ما طالبت برفع أجورهم،

ومعاملتهم معاملة حسنة، ودائمًا ما كانت تحث السُّود — وخاصةً أولئك الذين يستطيعون القراءة والكتابة — على اختيار من ينوب عنهم للدفاع عن قضاياهم.

أضافت «كيت» قائلة لي: إن أمي وأخريات ممن يفكرن مثلها يرتدين أحزمة سوداء فوق أكتافهنَّ عندما يشعرن بالحزن للتعبير عن عدم رضائهن عن الأشياء التي يفعلها البِيض ضد السود .. إن أمي وأمثالها يذهبن إلى الدوائر الحكومية ويقفن أمامها أثناء دخول الناس وخروجهم من العمل.

سألتها: هل تستمع الحكومة إليهن؟ وهل تضع الحكومة حدًّا لما يفعله البِيض بالسود؟

– لا، لكن أمي في مجموعة البِيض الأخرى.

– هل يقدمون في الحكومة الشاي والكعك لأمك ومن معها من النساء؟

– «كارابو»، يا لك من غبية! أوه.

– لكننا نحن السود إذا جاء إلينا شخص ما ووقف أمام البيت فإننا نسأله الدخول على الفور، ثم نقدم له الطعام، أما أنتم فإنكم مختلفون ومثيرون للعجب .. شيءٌ غريبٌ أن تقف النساء أمام المبنى دون أن يُقدِّم رجال الحكومة لهنَّ أيَّ شيء!

– أنت تعنين أنهم مختلفون أو فاترون، لقد علَّمْتُك كثيرًا ألَّا تقولي مثيرون للعجب عندما تريدين القول إنهم فاترون.

تطلعت «كيت» عبر المكان ثم أضافت وهي تصيح بلا حماس: حسنًا، إن النساء لن تقف هناك طوال اليوم لكي يطلبن شايًا وكعكًا يا غبية، أوه عزيزتي!

كانت سيدتي تطلب مني قراءة الصحف بعد أن تنتهي هي من قراءتها؛ لكي تساعدني على التحدث والكتابة بإنجليزية أفضل، وعندما كنت أقرأ شيئًا؛ كانت تسألني أن أخبرها بما فهمت؛ وهكذا تقدمت كثيرًا كما اتسعت مداركي قليلًا، وظللت أتعلم وأتعلم أشياء كثيرة عن السود داخل وخارج المدن مما لم أكن أعرفه من قبل. عندما كنت أجد بعض الكلمات الصعبة والتي لا أستطيع أن أفهمها؛ كنت أسأل السيدة، فتقول لي دائمًا بصبرٍ وكأنها تواصل السير في طريق طويلة: هل ترين هذا؟ هل ترين ذلك؟ إيه؟

نعم، كانت «مسز بلوم» تكتب كثيرًا للصحف، ودائمًا ما كانت تتألم للطريقة التي يضرب بها البوليس الأبيض السود، وللطريقة التي يجلس بها السود العاملون عند البِيض أمام بحيرة حديقة الحيوان بقلوب معلقة دونما إحساس بالحرية والاسترخاء؛ فقد كان البِيض يتهمونهم بإحداث الضوضاء في أمسيات أيام الآحاد في الوقت الذي يريدون فيه الاستمتاع بالراحة في بيوتهم وحدائقهم.

كانت السيدة تتألم لأشياء كثيرة قبيحة وسيئة كتلك التي تحدث عندما يقابل البِيض رجلًا أسود في الشارع أو على الرصيف، فظلَّتْ تكتب للصحف حتى يعرف الآخرون كل شيء مطالِبةً الحكومة أن تكون رحيمة معنا.

في العام الأول طلبت مني «مسز بلوم» أن أتناول الطعام معها على المائدة، لكن ذلك كان أمرًا صعبًا؛ إذ إنني لم أتعود استخدام الشوكة والسكين، كما أنني لم أسمع أبدًا — من قبل — عن أي عامل مطبخ قد تناول الطعام مع مخدومه، بالإضافة إلى خوفي من ضيوف السيدة إذا ما اكتشف أي شخص منهم أنني أتناول معها الطعام على المائدة نفسها.

قالت لي السيدة: لا تكوني سخيفة، إن الخدم الأفارقة بإمكانهم أيضًا أن يأكلوا على المائدة.

لكني في الحقيقة لم أستطع؛ لأن ذلك يعني أنه لن يكون بمقدوري تناول بعض الأطعمة التي أحبها جدًّا، مثل: عصيدة الذرة باللبن الرائب، والذرة المخلوطة، وزبدة الفول، وعصيدة الإفطار الحارة، وبعض المأكولات الأخرى، بالإضافة إلى أن طعامنا جميل عندما نأكله باليد، نعم، إنه جميل جدًّا حتى إنك لا تستطيع أن تبادل أي شخص التحية وأنت تأكل قبل أن يمر الطعام عبر الفم والزور متسللًا برفقٍ ونعومةٍ إلى أسفل.

كنت غالبًا ما أتناول الغذاء مع «شيمين» وذلك الولد البستاني، أوه! يجب أن أتوقف عن ذكر كلمة ولد هذه مرة أخرى عندما أتحدث عن رجل؛ فلقد تذكرت ذلك اليوم أثناء الأسابيع الأولى لي في بيت «مسز بلوم» عندما تحدثت عن «ديك» البستاني الذي يعتني بحديقتها ووصفته بالولد؛ عندئذٍ قالت لي «مسز بلوم»: توقفي يا «كارابو» عن كلمة ولد هذه.

ثم أضافت: استمعي «كارابو»، يجب عليكم أنتم الأفارقة أن تتحدثوا مع بعضكم البعض بشكلٍ لائقٍ، وإلا فإن البِيض لن يتحدثوا معكم هكذا.

قلت لها: لقد تعلمت الكلمة من البِيض الذين كنت أعمل عندهم، كما أن كل خادمات المطبخ يرددن هذه الكلمة.

أجابتني قائلة: أولئك هم البِيض الذين لا يعرفون شيئًا، إنهم من طبقات البِيض الدنيا.

قلت: لكنني أعتقد أن البِيض يعرفون كل شيء.

ردَّت «مسز بلوم»: سوف تتعلمين وتعرفين الكثير يا فتاتي، وعليك أن تبدئي في هذا البيت، أتسمعينني؟

ثم تركتني، ورحت أفكر حتى لم يَعُد عقلي الصغير قادرًا على الفهم.

لقد تعلمت وكبرت وعرفت الكثير في بيت «مسز بلوم».

كانت أية امرأة أو فتاة لا تعرف نادي الغراب الأسود بشارع «بري» لا تعرف بالتالي أي شيء .. إنه المكان الذي يبدأ بالمنطقة القذرة من المدينة؛ حيث المصانع والسوق ومكان إقامة الهنود والملونين، وحيث تعج بالحافلات سيرًا في طريق عودتها إلى أحياء السُّود .. إنه المكان الحافل بالضوضاء طوال الوقت؛ إذ تجلس النساء فوق الرصيف لبيع البطاطا الساخنة والفاكهة والفول السوداني والبَيض المسلوق في موسم الشتاء، والذرة المغلية وأشياء أخرى في الصيف؛ فتمتلئ الشوارع بالصياح وقشور البطاطا والفاكهة والفول السوداني والبَيض المسلوق، كما لم يكن بمقدور المرء أن يتجنب الرائحة النفاذة للخنازير المشوية المنبعثة من دكان «بيلز» عند نهاية الشارع.

شعرت «مسز بلوم» بالسعادة حين عرفت أنني أمضي أمسيات يوم الخميس في نادي الغراب الأسود، وأخبرتني بأنها تعرف السود الذين يعملون فيه، ثم قالت: سوف تتعلمين الحياكة، والتريكو، وأشياء أخرى تحبينها .. هل تحبين الرقص؟

أجبت: نعم، أريد أن أتعلم.

كانت تدفع لي شلنين كل شهرٍ ثمنًا لتعلُّمي الحياكة والرقص، وكنت أنتظر المعلمة في الطابق الأول مع أخريات ممن يتعلمن الحياكة معي، وأتبادل معهنَّ الحديث والضحكات عن السيدات والسادة الذين نعمل عندهم، وعن أطفالهم، وكلابهم، وطيورهم، ثم نتهامس عن الحب، وعلاقتنا بمن نحب مثلما قالت واحدة منا ذات يوم على سبيل المثال: أنتم لا تعرفون أن سيدتي بخيلة جدًّا.

وقالت أخرى: يجب أن تشاهدن الكلب الكبير في البيت الذي أعمل به .. إنه كلب كبير، كبير بطريقة غريبة.

ثم تبعتها ثالثة: ماذا؟ إنني أمسك كلب السيد من قدمه وألقي به بعيدًا حتى يظل ينبح وينبح؛ فأنا لا أداعب الكلاب ولا أجيد ملاطفتها.

ردت عليها إحداهن: يا للعار، ويا له من كلب مسكين .. إن الله يراك!

فقالت أخرى: كانوا يريدونني أن أصحب كلبهم للنزهة بالخارج كل يوم بعد الظهر، لكنني أخبرتهم أن ذلك لم يكن من طبيعة عملي في البيوت الأخرى التي عملت بها من قبل، وإنما كان ذلك من اختصاص البستاني.

قاطعتها واحدة أخرى قائلة: دعوني أحدثكنَّ عن ذلك الطفل الأبيض الذي يحتفظ بفأر أبيض كبير .. هل تعرفون ماذا يفعل؟ إنه يضع الفأر على سريره عندما يذهب للمدرسة فتمتلئ البطانية برائحة بول الفأر، ثم يخبرني بأن أغسلها .. هيه، أيها الناس!

قالت إحداهن: هل سمعتم عن «ريبون»؟ لقد طردتها سيدتها؛ لأن سيدها كان دائمًا يداعبها فوق أردافها بأصابعه، كما شاهدته السيدة ذات يوم وهو يضم «ريبون» إليه ويقبلها.

– أوه، أوه، أوه!

– رجل أبيض قذر!

– لا، ليس قذرًا؛ فالسيدة كبيرة جدًّا بالنسبة له، وقد اكتفت بأن تقول له أن يذهب ويغسل فمه بالصابون لأن فم «ريبون» قذر.

– أوه، «ريبون»، إنها واحدة منا، ويجب أن نساعدها لتجد وظيفة قبل أن تفكر في العودة إلى بلدها.

ثم جاءت المعلمة وهي امرأة ذات أقدام قوية، ووجه قاسٍ، وعينين توحيان بالطيبة، وشعر قصير، وترتدي ثوبًا بسيطًا لكنه جميل ومطعَّم بالأزهار .. كانت تقف على قدميها بثبات، وكانت تبتسم لنا وكأننا أطفالها فيصبح من اليسير رؤية تلك العلامة السوداء التي بين أسنانها. بدأت مجموعتنا باللعب، ثم قامت «ليليان جويي» بتوزيعنا على فصول الحياكة المختلفة، وتبادلت معنا بعض الأحاديث القليلة.

لم أستطع أبدًا أن أنسى ما قالته لنا تلك المرأة، لقد شرحت لنا كل شيء، وتعلمنا منها الكثير .. لقد أخبرَتنا أن وقت قناعة السود في الضواحي بالعمل، والرضوخ له من أجل إرسال النقود فقط إلى أهلهم، والذهاب لرؤيتهم مرة واحدة في العام قد انتهى، أو يجب أن ينتهي حتى إنها قالت: عليكم أيها السود أن تتعلموا؛ فالعالم لن يكون آمنًا أبدًا بالنسبة لكم إلا إذا أصبحتم أعضاءً في الحكومة، وهكذا تستطيعون صياغة القوانين .. إن القوة لن تتحقق إلا عن طريقكم؛ لأنكم أكثر عددًا من البِيض.

كانت تجيب على أسئلتنا بحكمةٍ واقتدارٍ حتى إنني كتبتُ بعض إجاباتها بخطي؛ ليصبح بإمكاني تذكُّرها فيما بعد.

– هل سيأتي يوم ونحتل مقاعد البِيض في الحكومة؟

– إلى حدٍّ ما، وستكونون أنتم الأكثرية، وعندئذٍ سيتَّحد كل الملونين الآخرِين، كما أن بعضًا من الرجال البِيض الجيدين لن يجدوا ما يمنعهم من الانضمام إلى الحكومة.

– يوجد بعض السيدات والسادة من البِيض ممن هم طيبون وممتازون فعلًا، وهناك أيضًا السيئون منهم، فهل نتخذ من الطيبين أصدقاء لنا؟

– إن السيد والخادم لا يمكن أبدًا أن يكونا صديقين، ويجب أن تكون هذه الفكرة بعيدة عن تفكيركم .. أنتن حتى غير متأكدات أن بعضهم طيبون؛ لأنهم لا يستطيعون التنفس، أو مجرد العيش بدون أن تعملْن عندهم وبدون أن يعمل كل السود في خدمتهم، وطالما أنكم معشر السود في حاجة لنقودهم فلا بد من مواجهتهم باحترام، ولكن يجب أن تعرفوا أن كثيرًا من الأشياء الحزينة تحدث في بلدنا؛ ولذلك يجب على كل السود أن يتعلموا، ويضيفوا إلى معرفتهم مع الاستمرار في إطاعتنا عندما نطلب منكم المساعدة.

في وقت آخر قالت لنا «ليليان جويي»: عليكنَّ بتذكر أهلكم الفقراء في بلدكم، وتلك الطريقة التي يحركهم بها البِيض من مكانٍ لمكان كالأغنام والماشية.

وفي أحيان أخرى كانت تقول لنا: تذكَّرْن دائمًا أن يدًا واحدة لا تستطيع أن تغسل نفسها؛ لأنها تحتاج ليدٍ أخرى تساعدها.

عندما كانت «ليليان جويي» تتحدث كنت أفكر في سيدتي، فقلت لنفسي ذات مرة: ماذا ستقول سيدتي لو عرفت أنني أُصغي لمثل تلك الكلمات؟

قالت لنا «ليليان» ذات يوم: إن أم الرجل الأبيض وخادمته السوداء هما اللتان قامتا بالعناية به حين كان رضيعًا، ثم تولت الحكومة البيضاء أمره عندما كبر؛ فأرسلته للمدرسة وعملت جاهدة على أن توفر له الغذاء وكل شيء، كما أتاحت له فرص العمل في الوقت الذي يشاء، حتى إذا ما رغب في ترك المدرسة في أي وقت.

ثم تساءلت: كم من البِيض يمكن أن يولدوا في مستشفى البِيض، وينشئوا في شوارع البِيض، ويرتدوا الملابس القطنية الجميلة، وينامو على وسادات بيضاء؟! .. كم عدد البِيض الذين يعيشون داخل السياج بعيدًا عن الملونين؟! كم من البِيض الذين يتعلمون طريقة التفكير الصحيحة، ويعرفون توجيه الأسئلة؟! إنهم قليلون جدًّا جدًّا.

كنت أكبر يومًا بعد يوم وأتعلم، وكثيرًا ما كنت أفكر في «مسز بلوم» التي أصبحت بالنسبة لي كالغابة السوداء التي يخشى المرء دخولها، والتي لا يبدو أنه سيعرفها في يوم ما، غير أنني في أوقات أخرى كثيرة كنت أشعر أنَّ فهم هذه المرأة أمر سهل؛ فهي مثل كل النساء البِيض الأخريات.

سألتني: ماذا يعلمونك أيضًا في نادي الغراب الأسود يا كارابو؟

أجبت قائلة: لا شيء سيدتي.

ثم أضفت: لماذا تسألينني يا سيدتي؟

– لأنك تتغيرين.

– ماذا تعنين؟

– أنت فقط تتغيرين.

– لكننا دائمًا نتغير يا سيدتي.

هكذا دار الحوار بيننا بعد أيام قليلة من إخبارها أنني لا أريد أن أستمر في قراءة صحيفة البِيض المحلية، وإنما أرغب في قراءة الصحف القادمة من الخارج .. كنت قد أخبرتها أن تلك الصحف التي يُشرِف عليها البِيض لا تهتم بشيءٍ سوى تصوير حياة البِيض، والحديث عنهم، وعن حدائقهم وكلابهم، وتناول حفلاتهم، وأخبار زواجهم، ثم سألتها إذا كان ممكنًا أن تبيع لي صحيفة الصنداي التي تتحدث عن أمثالي، فلم تتردد في بيعها لي رغم عدم اعتقادي أنها ستفعل.

كنت أنا و«شيمين» نسرق قليلًا من الوقت بعد أن ننتهي من الغسيل ونضعه على الحبال في الصباح، ثم نختبئ ونقف عند الجدار ونتبادل الحديث.

– هيه، «كارابو» .. إنني «شيمين».

– أوه، قبل أن تتكلمي في أي شيء .. هل عاد إليك «تيمي»؟

– هآه، أنا لا أبالي بعودته، إنه لا يزال غاضبًا؛ فالأولاد حمقى كما تعرفين، وهم يعودون دائمًا ببطون خاوية.

– نعم.

– رأيت «موروتي» يوم الخميس الفائت، فضحكت كثيرًا حتى وقعت على الأرض .. كان واقفًا أمام نادي الغراب الأسود، وكانت معدته الكبيرة — على ما يبدو — تستنجد، وتصرخ من الجوع وهو يحمل كلبًا صغيرًا تحت إبطه، ويقف بجوار امرأة تبيع البِيض المسلوق حين قال لي: هاي يا فتاة موطني .. كانت لحوم الكرشة والأمعاء تغلي في الإناء، وتنبعث منها رائحة لذيذة تُثير أي بطن جائعة، كان «موروتي» في انتظار المرأة لشراء بيضة مسلوقة، وكنت واقفة بالقرب فاستطعت أن أرى الكلب بوضوح وهو يتلوَّى ويتحسس أنفه حين كان ينظر إلى لحم الكرشة، فراح «موروتي» يداعبه بيده، لكن الكلب حاول أن يعضَّه في يده، وقد نجح أخيرًا في التقاط بعض من اللحم الطيب دون أن يسقط في الصلصة الساخنة التي تسبح فيها الكرشة .. كان اللحم يتقلب مع البِيض والبطاطا والتراب، فحاول «موروتي» أن يفعل مثل الكلب؛ لكن البائعة ظلت تنادي عليه وتصيح

طالبةً منه أن يدفع .. كنت في ذلك الوقت واقفة خلفه، وأنا أضحك بشدة حتى تدفقت دموعي؛ فأمسكت السياج بكلتا يدي تجنبًا للوقوع من كثرة الضحك.

سألتها: هل عاد «موروتي» ودفع ثمن الطعام؟

– نعم، لقد دفع.

– والكلب؟

– لقد أمسك به؛ إنه كلب أفريقي جيد يعرف كيفية البحث عن طعامه الخاص؛ لأنه ليس كتلك الكلاب الغبية المدلَّلة التي يقدمون لها البَيض والشاي والبسكوت في وجبات منتظمة.

– هاآم.

لحق بنا «ديك» البستاني كما يفعل دائمًا، وعندما أخبرناه بالقصة راح يتلوى على الأرض من كثرة الضحك، ثم سأل: مَن ذلك الموقَّر «موروتي»؟

أجبت: إنه صاحب نادي الغراب الأسود.

– أوه.

رحت أنا و«شيمين» نتذكر ذلك القس ذا الجسد الممتلئ الذي كان يأتي إلى النادي ويخترقنا بنظراته وهو يرسم ابتسامة رقيقة فوق وجهه المستدير .. كان ينظر إلينا بالابتسامة نفسها طوال الوقت بعينيه الدامعتين المتلألئتين بطريقة مضحكة وكأنه فلاح ينظر إلى حبات قمحه اليانعة، وهو يفكر في أشياء أخرى.

كان «موروتي» غالبًا ما يتحدث — بدون خجل — عن الفتيات الناضجات ذات الأثداء الكبيرة، ولم يكن ذلك القس محسوبًا على أية كنيسة، وكان معمِّدًا ومتزوجًا، ويعمل حانوتيًّا بأجر لقاء دفن مَن ليست لديهم كنيسة تقوم بمثل تلك الأعمال نيابة عنهم، وقالوا إنهم طردوه من الكنيسة المشيخية[١] Presbyterian Church، لكنه تمسك بشكله الكهنوتي بعض الوقت حتى فُتِح نادي الغراب الأسود مؤخرًا، وقد تعلم جيدًا كيفية الانسجام مع «ليليان جويي»، التي تعترف بأننا نستخدم ناديه في تعلم أشياء تساعدنا في الحياة، غير أنها لن تستطيع الاستمرار — كما قالت — إذا لم يتوقف عن أفعاله الكريهة مع الفتيات.

---

[١] Presbyterian: مشيخي، وهي صفة للكنيسة البروتستانتية التي يُدير شئونها شيوخ منتخَبون يتمتعون كلهم بمزايا متساوية. (المترجم)

عندما بدأتُ في سرد قصتي كنت سأحكي لكم عن الكلبين اللذين تمتلكهما «مسز بلوم»، لكنني وجدت نفسي أتكلم عن الناس، كان «ديك» على صواب حين سأل مستنكرًا: وماذا يعني كلب؟ .. كان يوجد الكثير من الكلاب والقطط والببغاوات في جرين سايد وأماكن أخرى؛ وبالتالي لم تكن كلاب «مسز بلوم» شيئًا غريبًا أو خاصًّا سوى في طبيعة عملها في البيت، وربما لذلك كانت «مسز بلوم» تحب الكلاب.

كان «مونتي» حيوانًا رقيقًا ذا شعرٍ طويلٍ، وعينين سوداوين صغيرتين، ووجه يُشبه وجه امرأة عجوز، أما الكلب الآخر «مالان» فهو أكبر من «مونتي» قليلًا، وذو لون بُنِّي ممتزج باللون الأبيض، وله شعرٌ قصيرٌ .. كان الكلبان ينامان في سلَّتين منفصلتين بحجرة نوم السيدة، وغالبًا ما كان يتم غسلهما وتنظيفهما بالفرشاة، ورشهما بالعطر قبل أن يناما في ملابس من الكتان القرنفلي، وفي كثير من الأوقات كان يطوق رقبةَ «مونتي» شريطٌ قرنفلي، وكان كلاهما يحمل غطاءً فوق ظهره .. لقد أصاباني بالضجر عندما شاهدتهما يستلقيان في السلة، وهما يتمتعان بصحة جيدة ويبدوان كأنهما يعرفان كل شيء يحدث في كل مكان.

كان «ديك» هو الذي يعتني بهما ويقوم برعايتهما وإطعامهما، بالإضافة إلى عمله في الحديقة وتنظيف المنزل .. لم يكن قد مضى وقت طويل على عمل «ديك» عند السيدة التي قبِلته للعمل عندها بعد أن طردت اثنين من قبله — كما أخبرتني — لأنهما لم يستطيعا الاعتناء بالكلبين: «مونتي» و«مالان».

أخبرني «ديك» ومعه «شيمين» أن الكلاب الأوروبية غبية ومدلَّلة، وقال «ديك» ذات يومٍ: إن أولئك البِيض سوف يعلِّقون الخواتم في أذن الكلاب والأطواق والخلاخيل في أقدامهم؛ وعندئذٍ سوف يترك العمل عند «مسز بلوم»؛ لأنه متأكد أنها ستطلب منه عندئذٍ أن ينظف الخواتم والأساور بالفرشاة، لكنه كان صبورًا رغم عدم تأكد السيدة منه؛ فقد كانت تذهب للكلبين بعد تناول وجبتيهما أو بعد تنظيفهما وتقول لهما: هل قدم «ديك» الطعام لكما يا أحبائي؟ وأحيانًا كانت تلاطفهما وتقول: هل قام «ديك» بتنظيفكما يا أحبائي؟ سوف أرى بنفسي.

استطعت أن أرى «ديك» في تلك الأثناء وقد انتفخ كالبالون من شدة الغضب قائلًا لي: يا لها من أشياء غريبة تلك التي يفعلها البِيض! إنهم يتحدثون إلى الكلاب!

قلت له: إن الناس تتحدث إلى الثيران أيضًا، ألم أقل لك ذلك؟

أجابني: نعم، إن الرجل يتحدث إلى الثور؛ لكي يشد له المحراث أو العربة، أو لكي يوقفهما له، لكن أحدًا لا يذهب إلى الثور ويلاطفه ويتحدث إليه .. هل رأيتِ طوال عمركِ شخصًا من بلدتنا اقترب من بقرة، وداعبها فوق بطنها أو خديها؟ أخبريني!

قلت: نحن نتحدث عن الثور وليس عن البقرة.

ضحك كثيرًا حتى اتسع فمه وتساقطت الدموع من عينيه، وفي لحظة بعينها وجدت نفسي أشاركه الضحك بصوتٍ عالٍ، ثم قال لي: عندما تجدين الوقت والفرصة المناسبتين تعالي وانظري إلى السيدة وهي تضع ورقة تتضمن بعض الملاحظات فوق باب حجرة نومها.

سألته قائلة: ماذا تقول يا «ديك»؟

أجابني: أنا لا أتكلم، إن بداخلي أشياء كثيرة غامضة.

كان «ديك» في نحو عمرنا أنا و«شيمين»، ولم نكن نهتم بألاعيبه ومداعباته؛ لأنه لم يكن يكبرنا بما يكفي لأن يكون محبوبًا لنا .. كان يقول لنا: هاي، هاي يا بنات .. لكن السيدة لم تكن تحب ذلك، وقد سألتنا كثيرًا عن السبب الذي يجعلنا نضحك حتى قالت ذات مرة: عندما تحتاج الوردة في الحديقة إلى الماء فإن ذلك لا يدعو إلى الضحك.

ثم أضافت: إذا توقفتم عن رش نباتاتي بضحكاتكم، وقمتم بمزيد من العمل فإن ذلك سيكون مفيدًا أكثر.

وفي الأوقات التي لم نكن نضحك فيها أيضًا لم تتوقف السيدة عن القول: إذا سمحتُ لكم أن تعتنوا بكلابي دون أن يعتني بكم أحد في الوقت نفسه فسوف تجلبون نتائج سيئة.

تساءل «ديك» وهو يبتسم: هل تسببت في أي أذًى لكلاب «مسز بلوم»؟

كان «ديك» يخاف من أولئك البِيض، وأعتقد أنه كان يحاول جاهدًا أن يقهر ذلك الخوف حين كان يعرض علينا أنا و«شيمين» — في جلسات خاصة — الطريقة التي تمشي وتتحدث بها «مسز بلوم»، حتى إنه تناول ذات مرة كُرَتين وضمهما إلى صدره وراح يتحدث إليهما برقة كما تفعل السيدة مع الكلبين «مونتي» و«مالان»، ثم جلس إلى مائدة السيدة وراح يمثل طريقتها في الكتابة؛ حيث رجع للوراء وشد وجهه كالحصان وهو يأمرني بعمل شيء، في اللحظة نفسها التي بدأ فيها وكأنه يبحث عن نظارته، كما جلس فوق أحد مساند الكرسي فاردًا قدميه كما تفعل السيدة حين تشرب الشاي .. أمسك فنجان الشاي بإبهام يده، وضحك كما كان يضحك بعد كل عملية يقوم بتمثيلها، أما أنا فقد كنت أنبطح أرضًا من كثرة الضحك في كل مرة.

ارتعش «ديك» من شدة الخوف عندما قامت «مسز بلوم» بتوبيخه فتساءل بينه وبين نفسه: لقد قمت بواجبي في تنظيف البيت على أكمل وجه فأين الخطأ إذن؟ .. لا بد أن خطأ ما قد حدث في إطعام الكلبين أو في طريقة ارتدائهما لملابسهما الكتَّانية.

لقد كان ذلك الرجل الذي جاء ذات يوم بعد الظهر وأخبر السيدة أن «ديك» أهمل كثيرًا عندما اصطحب الكلبين في نزهة بالخارج، وأضاف قائلًا لها وكأنه يريدها أن تعرف مدى اهتمامه وخوفه على الكلاب: لقد كنت أقود سيارتي باتجاه شارعكم حين رأيت «ديك» يترك «مونتي» و«مالان» يعبران الشارع وحدهما، ولقد حالَفنا الحظ كثيرًا حين وضعت قدمي على الفرامل في الوقت المناسب؛ إذ لم تكن بيني وبينهما سوى بوصة واحدة، بوصة واحدة فقط، غير أن الغريب في الأمر كله أن ذلك الولد لم يتأثر، وإنما ظل يبتسم .. أمر غريب حقًّا! لقد فعل الولد الذي كان يعمل عندي مثل هذه الفعلة مرتين؛ فلم أتردد في طرده. ثم سارعت بمخاطبة الكلب قائلًا: تعال يا «روستي» فالولد في انتظار أن ينظفك.

الكلاب لها أسماء، الرجال بدون أسماء .. هكذا فكرت.

ذات يوم مزق أحد الكلبين جوربي بأسنانه وكفَّيه؛ فغضبت بشدة، وعندما أخبرت السيدة أعطتني نقودًا لأشتري زوجًا آخر من الجوارب، ولكن عندما مزق الكلب جوربي مرة ثانية قالت لي: لن أعطيك نقودًا هذه المرة، وعليكِ أن تحفظي جواربك بعيدًا عن مُتناوَل الكلبين المهذبَين.

في العام الثالث من العمل عند «مسز بلوم» في بيتها حدثت أشياء كثيرة سيئة بالنسبة لها، فقد واجهت بعض المتاعب مع «كيت»، كما كانت «شيمين» تعاني مشكلة كبيرة فتأرجح قلبي بين حبين.

كانت السيدة تعقد عددًا من الحفلات ودعوات العشاء التي تدعو إليها بعض الأفارقة، وعندما سألت «كيت» عن السبب وراء تلك الحفلات ودعوات العشاء أخبرتني بأن أمها تفعل ذلك عندما تنتهي من كتابة أحد كتبها، وأحيانًا عندما يأتي زائر من بلدٍ بعيدٍ، وعلى أية حالٍ فإنني لم أكن أحب السُّود الذين يحضرون تلك الحفلات لكي يشربوا ويأكلوا، فقد كانوا يتحدَّثون بإنجليزية صعبة مثل أولئك المثقفين، وكانوا ينظرون نحوي كنموذج لشخص أسود مثلهم وأحد الذين يفكرون فيهم وينشغلون بهم.

سمعت «كيت» ذات مرة وهي تتحدث إلى أمها قائلة: أنا لا أعرف لماذا تقومين بدعوة كثير من الأفارقة؟!

ثم قالت شيئًا عن الحكومة لم أستطع أن أسمعه جيدًا.

أجابت السيدة قائلة: أنت تعرفين أن بعضهم لا يجد فرصة أخرى لمقابلة البِيض، كما أنهم لا يأتون إلى هنا طمعًا في صداقتي، وإنما من أجل الشراب فقط.

شعرت بعدم قدرتي على أن أكون خادمة للبيض والسود في وقت واحد، فأنا في بلدي أو حتى في حجرتي أستطيع القيام بخدمة السود دون أي شعور بالخجل، أما هنا فإنهم يأتون فقط من أجل الشراب، فيما عدا ذلك الأسود الذي كان يأتي دائمًا للمطبخ مع أخته ليتحدثا معي، لكنني — في البداية — كنت أنظر إليهما بغير مودة؛ لأن «كيت» تحدثت معي بشأنهما ذات يوم عندما شاهدَتْهما معي في المطبخ .. عرفت عندئذٍ أن بيت الشخص الأبيض ليس هو المكان الذي يحق له فيه أن أبدو سعيدة أمام السود؛ فالأبيض دائمًا ينظر إلى كلِّ شيء بارتياب.

لكنني لم أستطع — ولن أستطيع أبدًا — أن أنسى تلك الليلة التي حدثني فيها ذلك الرجل بكلمات طيبة ورقيقة جعلتني أشعر بأن قلبي يكبر ويرتجف بداخلي، وحين تكررت زيارته عدة مرات أخرى عرفت أنني أحبه، غير أنني لم أستطع معرفة ما يفكر فيه هو كرجل تجاهي أنا كامرأة، وأيًّا كان الأمر فلقد أحببته، ولم أتوقف عن التفكير فيه بقلبٍ متألمٍ .. كنت أتألم لمعرفتي بأنه طبيبٌ ومثقفٌ ويجيد الإنجليزية، وأنني لن أستطيع أن أفهمه.

أصيبت «مسز بلوم» بقلقٍ شديدٍ عندما تغيرت «كيت» فجأة، وبدت كأنها شخص آخر يتعامل ويتصرف بطريقةٍ جديدةٍ، حتى إنني لم أعد قادرة على إدراك الصواب من الخطأ .. لقد بدأت «كيت» ترفع صوت الجرامافون الكبير عاليًا، وكأنها تريد أن يستمع كل الناس في جرين سايد إلى الموسيقى .. كانت «كيت» تتلوى مع الموسيقى الصاخبة بفم نصف مفتوح، وحينما أبصرت وجهها عرفت أن هناك شيئًا ما عميقًا وغاضبًا وراء كل ذلك، وقد بدت لي شابة أحيانًا وعجوزًا في أحيان أخرى .. كنت أنا وهي في سن الثانية والعشرين، وأعتقد أنني استطعت معرفة السبب وراء قلق أمها الشديد ومعاناتها.

كانت السيدة وابنتها تصرخان في وجه بعضهما داخل حجرة الجلوس، ثم توجهتا للدور العلوي، وهما تتحدثان بكلمات ساخنة، وبطريقة سريعة لم أستطع أن أفهم بعضها، وفي يوم ما تقدمت السيدة نحوي، وقالت: أتعرفين أن «كيت» تحب شخصًا أفريقيًّا؟ إنه الطبيب الذي يأتي للعشاء هنا، وهي تقول إنه يحبها أيضًا، وإنهما سيغادران البلد ويتزوجان.

ثم أضافت: كيف ينظر أهلك يا «كارابو» إلى مثل تلك العلاقة بين امرأة بيضاء ورجل أسود؟ إن ذلك غير صحيح على الإطلاق.

قلت: لم يحدث أن رأينا مثل ذلك الشيء أبدًا في بلدتنا.

قالت السيدة وكأنها تحدث نفسها: نعم، هو كذلك يا «كارابو»، إن مثل تلك العلاقة هي الجنون بعينه.

تركتني السيدة وقد بدت كشخص مطرود، وعندئذٍ قلت لنفسي: لماذا لا تحب النسوة البِيض رجالهن البِيض ويتركن لنا الفرصة لنحب رجالنا؟ ثم عرفت في اللحظة نفسها أنني لم أعد راغبة في الحديث مع «كيت» التي بدت لي كاللص، أو كالثعلب الذي ينقضُّ على قطيع من الماشية في الليل، وأخشى أن يصبح الأمر أكثر سوءًا ولا يسمحوا له بالحضور إلى البيت مرة أخرى .. لقد كرهت «كيت»، ولم أعُد أتبادل معها الحديث طوال وجودها بالبيت، كما أنني لم أكن شغوفة بمعرفة أي شيء عن كيفية ما تنوي عمله.

ظللت مستيقظة عدة ساعات فوق سريري، كنت مستلقية، وكانت أجزاء من جسدي تنبض وتدق كما تفعل الماكينات الكبيرة، وحين نمت حلمت بأشياء مؤلمة؛ فكان لا بد بعد ذلك أن أتخذ قراري .. أخبرت صديقي ذات مساء بأنني لم أعد أريده فتأثر كثيرًا وتألم؛ مما جعلني أتألم أيضًا، ثم تركني ومضى، غير أنني لم أتوقف عن التفكير فيه، وقد تألمت لعدم إمكانية رؤيته مرة أخرى إلا إذا قابلته في الشارع مصادفة في إحدى أمسيات أيام الخميس، لكنه كان يمتلك سيارة، فكيف يمكنني أن أجعله يشعر بحبي؟ .. آه، أعتقد أن ذلك الطبيب الأفريقي لن يتوقف ليفكر فيَّ، ولن يشغل باله بي.

في ذلك الوقت من الشتاء حيث يذهب البِيض إلى البحر، وحيث نجد — نحن الخدم السود — أشياء كثيرة نفعلها، كنت أجد نفسي مشتعلة بالحب والأشواق. وفي الحقيقة كان الشتاء هو وقت الخدم فيما عدا الخادمات اللاتي يذهبن مع سيداتهن لرعاية الأطفال، أما أمثالي فقد كنا نبقى بالمنزل للعناية به، وللقيام برعاية الكلاب التي تصبح هي السادة في غياب أصحابها، فنقوم باصطحابها للتنزه في الشوارع كما يفعل البِيض.

كان العمل قليلًا حتى إن ولدًا من الخدم فكَّر في إقامة حفل بحجرته، وحين سمعنا بذلك لم نصدِّق، واعتبرنا الأمر مجرد مزحة لطيفة، وقال بعضنا: يا له من جريء وغبي! .. إن البوليس يتجول دائمًا في الليل بحثًا عن السود، وماذا لو سمع البِيض المجاورون لنا ثمة ضوضاء صادرة من الحفلة؟ أوه! .. لكننا كنا متحمسِّين وفرِحين جدًّا للفكرة، وراغبين في الاشتراك في الحفلة، غير أن «ديك» فتح فمه الكبير، وأصابه الإغماء عندما سمع عن الحفلة، وعرف أنني أنوي الذهاب.

جاءت «كيت» في يوم الحفل، وقد بدت أقل غضبًا وغلظة، لكنني لم أكن مستعدة للحديث معها حين قالت لي: لقد أخبرتني أمي أنك لا تحبين أن يتزوج رجل أسود من فتاة بيضاء.

صمتَتْ قليلًا ثم أضافت: لكنني أريد مساعدته يا «كارابو».

سألتها: كيف تريدين مساعدته؟

أجابت: أريده أن يرتقي حتى يصل للقمة.

كان صدري يجيش بالكثير من القول، لكنني لم أستطع البوح بأي شيء، ورحت أفكر في «ليليان جويي» وفي كل ما قالته لنا؛ وعندئذٍ غرقت في أفكار كثيرة، وأصابني التشوش.

قالت «كيت»: إن أمي أيضًا تميل إلى الرأي نفسه، فهل ما زلت توافقينها؟

قلت: لقد قلت لأمك بأنه لم يسبق لي أن رأيت رجلًا أسود يتزوج من فتاة بيضاء، وعلى أية حال فإن ذلك لا يعنيني؛ لأنني لا أفكر إلا في عملي.

تذكرت أنني كنت سأقوم بكَيِّ فستان الحفلة، فتركتها ومضيت، ورحت أفكر في الحفلة مرة أخرى وأنا أقول لنفسي: غدًا ستشرق الشمس علينا جميعًا .. نعم، ستشرق الشمس في وجود «كيت» أو عدم وجودها، وفي وجود الطبيب، أو عدم وجوده.

انتابني شعور بالسرور لأن «كيت» والطبيب لن يتسبَّبَا في تكدير صفوي في ذلك اليوم.

ارتدينا أحسن ملابسنا التي نشتريها عادة من الأولاد الذين يقومون بسرقتها، ومضينا إلى حفلة قريبنا في البيت الذي يعمل فيه ونحن نتهامس طوال الطريق، وحين أخبرنا شخص ما أن البِيض في البيت المجاور غير موجودين قلنا: أوه، هذا هو المطلوب.

انتشرنا عبر الحديقة في الخلف، ثم وقفنا أمام حجرته ونحن نضحك في هدوء، وحين جاء من البيت الكبير، وأخبرَنا أن ندخل بيت أولئك البِيض لم نصدق؛ فقال أحدنا: كيف يجرؤ؟ هل أصابه الجنون؟

دخلنا بخطوات بطيئة وكأننا نتشمم الأرض، وما هي إلا لحظات قليلة حتى وجدنا أنفسنا واقفِين فوق سجاد ناعم، أو جالسِين فوق وسادات جميلة دافئة، وكانت سخانات التدفئة تقوم بدورها على أكمل وجه .. قام قريبنا بخفض الأنوار، وكانت البنات متأنقات، كما بدا الأولاد في أحسن صورة.

كانت «ناومي» — صديقة قريبنا — مشغولة بإعداد الطعام في المطبخ، بينما راح هو يجهز الأكواب، والمشروبات المثلجة، وعصير الفاكهة، وعصير الطماطم، والبيرة، وأنواعًا

أخرى كثيرة من المشروبات الخفيفة، وكان كل شيء جميلًا: الكعك، والبسكوت، والوجبات الخفيفة، والكيك .. ووه، لقد كانت حفلة حقيقية!

تناولت كثيرًا من كعك الزنجبيل الذي قامت «ناومي» بعمله .. جاء قريبنا نحوي وقال: لن أقدم المشروبات الكحولية ولا حتى البيرة؛ كي لا يجد البوليس سببًا للقبض علينا إذا جاء فجأة؛ إذ يجب أن نشعر أننا أحرار، لكن مجرد إقامة حفلة فإنني أعتقد أنه لا يوجد قانون يحظر علينا إقامة الحفلات.

قلت له: إن لديك كبدًا قويًّا فلا تخف من الشراب.

ضحك وبدأ في تشغيل الجرامافون فسمعنا موسيقى «مريم ماكيبا» و«دوروثي ماسوكا»، وبعض العازفين والمطربين الأفارقة الآخرين، ثم رقصْنَا، وأصبحت الحفلة أكثر صخبًا وسعادة .. تناولْنا مزيدًا من الطعام، وضحِكنا كثيرًا، وتبادلنا الحكايات والقصص، وفي منتصف الحفل تقريبًا أخبرنا قريبنا أنه وصديق له من أورلاندو كانا يجمعان النقود كل عام للمشاركة في سباق الجياد، والمراهَنة على الحصان الرابح دون أن يربحا أبدًا، لكنهما ربِحا هذا العام مائتين من الجنيهات .. هتفْنا جميعًا مشجعين وصفَّقْنا قائلِين: مائتان من الجنيهات .. أووه!

قلت له: يجب أن تلزم البيت إذن لتعاني من الفراغ.

ضحك قليلًا: أنتِ لم تفهمي شيئًا.

ثم قال لنا جميعًا: والآن إخواتي وأخواتي، استمتِعوا بوقتكم .. لو كنا في بلدتنا ووسط أهلنا لكنت ذبحت خروفًا، وتوجهت بالشكر لأجدادنا، ولكن هكذا هي حياة المدينة، وعلى أية حال فإننا يجب أن نشكر أهل المدينة على الشاي، والكعك، وكل هذه الأشياء الحلوة .. أعرف أن بعضكم يفكر في جرأتي، فأرجوكم ألا تخافوا، واستمتعوا بوقتكم.

عادت السيدة في حالة جيدة، وقد بدت أكثر نضارة، وفي الأسبوع نفسه بدأت الشرطة تفتش حجرات الخدم مرة أخرى .. كانوا يبحثون عمن يدعوهم بالمتسكعين، وأولئك الذين يعيشون مع أصدقائهم في الضواحي بدون تصاريح، وبطريقة غير قانونية، فأصبح عدد الأولاد قليلًا أو نادرًا .. أولئك الأولاد الذين كانوا يذهبون إلى صديقاتهم ممن يعملن مثلي في المطابخ؛ لكي نُقدِّم لهم قطعة من اللحم الذي يشتريه البِيض خصوصًا للكلاب أو لنا.

ذات مساء دخل شرطي أبيض وآخر أسود إلى فناء «مسز بلوم» للتفتيش لكنها اعترضت، فقالا لها: يجب أن نقوم بالتفتيش.

قالت «مسز بلوم»: لا.

لكنهما شقَّا طريقهما بالقوة إلى الخلف حيث حجرة «ديك» وحجرتي، فسارعت «مسز بلوم» بالتقاط خرطون المياه من الحديقة الأمامية بينما كان الشرطيان يتحدثان إلى «ديك» بعبارات قذرة، وراحت تلف وتدور بسرعة .. انطلقتُ أنا مسرعة؛ لمعرفة ما ستقوله لهما فأبصرتها وهي تشير لهما بخرطوم المياه؛ مما أصابهما بالدهشة، وما أن استدارا إلى الناحية الأخرى حتى سلطت «مسز بلوم» الخرطوم إلى وجهيهما، فانتهزت الفرصة وتسللتُ دون أن يراني أحد إلى صنبور المياه في ركن البيت وفتحتُه بقوة؛ وعندئذٍ رأيت «ديك» يحاول مثلي أن يُخفي ضحكاته. صاح الشرطيان وحاولا الابتعاد عن المياه قدر استطاعتهما، غير أن «مسز بلوم» كانت تُصَوب الخرطوم ناحيتهما إلى أعلى وأسفل؛ فلم يَجِدا بديلًا عن الهرب عبر بوابة الفناء وهما يتوعَّدان فقالت «مسز بلوم»: لقد انتقمنا منهما.

في صباح اليوم التالي كان الخبر منشورًا بإحدى الصحف، وبعد انتصاف اليوم بقليل عاد الشرطيان مرة أخرى وبصحبتهما شرطي آخر أشار له إلى «مسز بلوم» التي توجهت معهم إلى قسم الشرطة للإجابة عن سبب وقوفها ضد قيام الشرطة بمهامها، لكنها عادت وقالت إنها دفعت كفالة.

قالوا في المحكمة: إن السيدة قامت بعمل سيِّئ ولا بد من دفع غرامة مالية، أو قضاء أسبوعين في السجن، فقالت لها «كيت»: أنتِ لم تفعلي شيئًا يستحق السجن، كما أنه لا يستدعي المحكمة أيضًا .. ادفعي النقود، إنها خمسة جنيهات فقط.

لكن «مسز بلوم» اختارت السجن بعد أن تأكدت أنها غير مخطئة.

بعد خروجها من السجن كانت تبدو حزينة جدًّا، ورحتُ أنا أفكر فيما قالته لنا «ليليان جويي» كثيرًا: يجب أن تكون مستعدًّا للذهاب إلى السجن في أي وقت من أجل الأشياء التي تؤمن بها.

سألت نفسي: كيف تفكر «مسز بلوم»؟ وفي أي شيء تعتقد؟ كيف تفكر بشأني وشأن «شيمين» و«ديك» وكل السُّود الآخرين؟

لم أكن أعرف الإجابة، لكن كتاباتها الكثيرة للصحف، وتلك الاجتماعات التي كانت تتحدث فيها مع أمثالها من البِيض عن السود، بالإضافة إلى طريقتهم في التعامل مع الحكومة ورجالها البِيض جعلتني أعرف أنها تفكر فينا نحن السود، لكنني ظللت أتساءل: لماذا تبدو حزينة جدًّا؟

عادت «كيت» للبقاء في المنزل وكانت كعادتها ترقص وتتمايل على صوت الجرامافون العالي حتى إنني اعتقدت — ذات مرة — أن خصرها سيتكسر من كثرة الرقص، وفي تلك

المدة كان يأتي لزيارتها شاب أبيض يُدعَى «جيم»، وكنت أشاهدهما من خلال فتحة باب المطبخ وحجرة الجلوس وهما يقبِّلان بعضهما بعضًا لأوقات طويلة، وقد رأيته — ذات مرة — وهو يرفع فستان «كيت» وقد بدأت أقدامها ترتعش وأوه، أخشى أن أقول المزيد، لكن قلبي كان يدق بقوة؛ فقد كنت في ذلك الوقت أعيش حالة حب كبيرة تفوق في حدَّتها حبي الأول .. كان وجه الطبيب يقفز إلى ذهني كثيرًا، غير أنني لم أعد أتألم .. توقفتُ عن النظر خلسة إلى «كيت» و«جيم» من خلال الفتحات وبدأت «كيت» تتحدث معي بحرية أكثر مما سبق، ولكن بطريقة عصبية في معظم الأوقات؛ فلقد صارت هي وأمها صديقتين من جديد.

ذات صباح بينما كنت أرتب مئزري سمعت «شيمين» تناديني قائلة: هاللو «كارابو».

كنت في طريقي لتعليق حبل الغسيل فأبصرتها واقفة عند السور، وانتابني إحساس بأن لديها شيئًا خاصًّا تريد إخباري به، ثم توجهتُ إليها وأجبت: هاللو «شيمين».

في تلك اللحظة خرجت امرأة من الباب الخلفي للمنزل الذي تعمل فيه «شيمين»، ولم أكن قد رأيت تلك المرأة من قبل، وحين سألت «شيمين» أجابتني: إنها حماة السيدة، ألم أخبرك عنها أبدًا؟

– بلى، أبدًا.

– هذه المرأة الفقيرة موجودة هنا منذ يومين، وهي تُعِدُّ الطعام لنفسها بينما أقوم أنا بإعداد طعام العائلة.

– في الموقد نفسه؟

– نعم، إنها تأتي بعد أن أنتهي أنا من كل شيء؟

– أهي تعد طعامًا خاصًّا لنفسها؟

– نعم يا «كارابو»، فالبِيض ليس لديهم قلب أو إحساس.

– ماذا سيحدث لو أنها شاركتهم الطعام نفسه؟

– أجابت «شيمين» وهي تضرب كفًّا بكفٍّ: إنه شأن الله وهو وحده الذي يعلم، وليس من شأننا نحن أن نعرف.

قالت «شيمين» ذلك، لكنني حين نظرت إلى عينيها عرفت أنها كانت تفكر في شيء آخر، فقلت لها: اعذريني يا «شيمين»، سوف أقوم بإخراج الكعك من الفرن وأعود إليك .. انتظريني.

عندما عدت إليها كانت تمسح عينيها المبللتين؛ فقالت لي: «كارابو» أتعرفين؟

هززت رأسي فاستطردت «شيمين»: إنني حامل.

– أووه.

سادت لحظة من الصمت، قلت بعدها: ومَن هو يا «شيمين»؟

– «تيمي» .. وكأنه قد عاد فقط ليمنحني ذلك.

– لكنه يحبك .. هل أخبرته؟ وماذا قال؟

– لقد أخبرته بالأمس حين التقينا في المدينة.

– حسنًا، وماذا قال؟

– أخبرني بألَّا أنزعج، ومن الممكن أن أكون زوجته.

– إن «تيمي» شخص جيد يا «شيمين» .. إن القليل جدًّا ممن يمارسون تلك العلاقات في المدينة هم الذين يعترفون بأطفالهم.

– أوه .. «كارابو»، أنت تتحدثين عن شيء آخر .. ألا تعرفين أنني لم أعمل بما يكفي لتلبية احتياجات أهلي حتى الآن؟ .. إذا تزوجت الآن فمن سيعتني بهم خاصة وأنني ابنتهم الوحيدة؟

– نعم، نعم .. إنها مشكلة حقيقة فعلًا، ولكن يمكنك مناقشة الأمر مع «تيمي» إذ يمكنك العودة إلى بلدك قبل الولادة بقليل للعناية بالطفل لمدة ثلاثة أشهر، ثم تعودين للعمل في المدينة، وبنقودك ونقود «تيمي» تستطيعان مساعدة الكبار الذين سيتولون رعاية الطفل.

– وماذا سنأكل جميعًا طوال الأشهر الثلاثة التي سأقضيها في البيت؟ إن الأمر مختلف؛ ففي الماضي كان لدينا أرض، وكان بمقدور أمي أن تذهب للحقل حتى يأتي موعد ولادة الطفل.

توقَّف عقلي عن التفكير ولم أستطع أن أجد إجابة شافية .. يا إلهي، كم مرة خشيت فيها من الشيء نفسه .. إنني أحب وأطمع في رحمه الله؛ فنحن جميعًا هكذا، ولا نملك إرادتنا.

– اسمعي يا «كارابو» يجب أن أذهب لعمل شاي للسيدة؛ فالساعة الآن العاشرة والنصف.

عدت للبيت ولم تكن السيدة موجودة؛ فألقيت بنفسي فوق الأريكة في حجرة الجلوس .. اقترب مني الكلب مالان وراح يتشمَّم قدمي حتى صرخت وذهبت بعيدًا وأنا أَقول له: اذهب وأخبر أخاك بما فعلته معك وأخبره أيضًا أنني سأفعل معه ما هو أكثر من ذلك إذا ما حاول أن يفعل مثلك، ولا تنسَ أن تقول لجدتك عندما تعود.

عندما رفعت عيني كان «ديك» واقفًا عند باب المطبخ، فقال: هيه، أنت الآن أيضًا تتحدثين إلى الكلاب!

لم أقل شيئًا، وإنما ظللت أنظر إليه، ثم توجهت إلى غرفتي وجلست فوق سريري، ورحت أنظر إلى وجهي في المرآة، فشممت رائحة السيدة، أوه! إنها أيضًا رائحتي، لقد استخدمت مستحضرات التجميل الخاصة بالسيدة؛ فكنت أشم رائحتها منذ الصباح، كما شعرت وكأن سحابة سوداء تحلِّق فوقي وتضغط على رأسي وأكتافي.

لم أستطع الجلوس فخرجت ورحت أمشي وأتجول عبر المنزل؛ فقد أصابتني رائحة المنزل بالسأم وغمرت كل حلقي، ثم توجهت للحمَّام دون سبب ما؛ فشممت رائحة السيدة تفوح بقوة، وأبصرت «ديك» وهو ينظف الحمَّام، فوقفت عند الباب وظللت أنظر إليه وهو يزيل الوسخ الخاص بجسد السيدة ويقوم بإخراجه من الحمَّام.

قلت لنفسي بصوتٍ عالٍ: لماذا لا ينظِّف الناس الأشياء الناتجة عنهم؟ ثم خرجت قبل أن يلحظني «ديك».

قلت لنفسي مرة أخرى: لماذا أفكر في ذلك الآن وأنا التي قمت بتنظيف الحمَّام مرات كثيرة عندما كان «ديك» مريضًا، كما أنني أقوم بغسل ملابسهم منذ مدة طويلة، بالإضافة إلى المرَّات الأخرى الكثيرة، والتي لا يمكن إحصاؤها التي قمت فيها بالإمساك بأسوأ الأشياء الخارجة من جسدها؟

وقفت في منتصف الطريق بين البيت وحجرتي، ورحت أتطلع إلى الفناء، لكنني فوجئت بالقطط الثلاث الرمادية وهي تقف عند السور، ولا أعرف كم من الوقت قد مضى وأنا أتطلع إلى القطط التي كانت تبادلني بنظرات متشابهة حتى استدارت وذهبت بعيدًا وهي تموء وتقفز مثل شخص يشعر تجاهك بالشفقة، ثم فكرت قائلة لنفسي: لماذا لا تذهب هذه القطط، وتنظر إلى السيدة كما تنظر لي؟

دخلت حجرتي ونظرت في المرآة ثم تساءلت: هل هذه هي «كارابو»؟

في يوم الخميس التالي لم أرَ «شيمين» في مقهى الغراب الأسود؛ فانتابتني الحيرة وشعرت بقلق نحوها حتى جاء المساء، فوجدت ورقة تحت بابي تُفيد بأنه في حالة عدم عودة «شيمين» فإنها ستكون في الشارع الثالث، رقم ٦٦٠ بمنطقة أليكساندرا.

لم يرحب «ديك» في البداية بالذهاب معي إلى حيٍّ أليكساندرا بعد أن انتهى من تنظيف الأطباق، لكنه وافق أخيرًا بعد أن أخبرته أن «شيمين» لن تصدق عدم حضورك معي.

حدثني «ديك» في الباص عن أخته الصغرى، وكيف أنه يساعدها بالنقود؛ كي تواصل دراستها وتصبح ممرضة وقابلة .. عرفت من حديثه عن أخته أنه يحبها كثيرًا، وأنه يصلي دائمًا حتى لا يفقد وظيفته كما فقدها مرات عديدة من قبل؛ حتى يتمكن من شراء الملابس والكتب لها، ولا يضطر لاقتراض المال من الناس؛ كي يدفع مصاريف مدرستها .. كان «ديك» يتحدث عن أخته وكأنها حبيبته، إنها متفوقة في المدرسة كما أنها تبدو جميلة مثلما رأيتها في الصورة التي يحتفظ بها «ديك» .. كانت تعتني بكبار السن في حي أورلاندو بالرغم من عمرها الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة.

قال لي «ديك» في ذلك اليوم: ما زلت مدينًا لكثيرٍ من الناس؛ لأنني كثيرًا ما فقدت وظيفتي.

قلت له: حاول هذه المرة أن تواصل العمل مع «مسز بلوم».

كنت لا أزال أفكر في «شيمين» فلم أستطع أن أفهم كل ما قاله «ديك»، وعندئذٍ سألت نفسي: ماذا تفعل «شيمين» الآن؟ ولماذا تلك الورقة تحت الباب؟

عندما وصلنا إلى ذلك الحي المرعب المليء بالسكاكين ليلًا ونهارًا، والذي يعج بسلاسل الدراجات والبنادق والكلاب الضالة والناس الغارقين في المتاعب، وجدناها تتألم فوق السرير، وكان وجهها — رغم ضوء الشموع — رماديًّا وكئيبًا حتى إنني أمسكت بقلبي بين يدي .. استدارت «شيمين» نحوي وكانت امرأة عجوز تجلس فوق الكرسي واضعة إحدى يديها فوق الأخرى وذقنها فوق كتفها، إنها المرأة نفسها التي فتحت لنا الباب بصعوبة بعد أن أخبرناها باسم كل منا بصوتٍ عالٍ، ثم عادت لتجلس فوق مقعدها مرة ثانية كما لو أنه لا يوجد شيء آخر تفعله، لكنها بعد لحظةٍ قصيرةٍ تنحنحت وقالت: ها هي صديقتكم، إنها ابنة أختي وقد جاءت من رحم أختي، أختي التي كانت ترفض أثداء أمي؛ حتى تمنحني فرصة الرضاعة .. لماذا فعلت بنفسها ذلك الشيء الشرير؟ أوه .. أنتنَّ يا فتيات هذه الأيام لا تعرفن بأن الأطفال يموتون سريعًا هذه الأيام، ولذلك يجب أن تشكرن الرَّبَّ الذي يزرع البذرة في أرحامكنَّ حتى تنمو وتصبح طفلًا .. إذا شاء للطفل أن يولد فلا بد أن أعتني به، وستكون أختي سعيدة حين تضع حفيدها فوق حِجرها، ولكن فيمَ يساعد ذلك؟ أنا لا أعرف!

عندئذٍ أبصرت خالة «شيمين» وهي تبكي فقد كان قلبها مفعمًا بالحزن مثلما كانت «شيمين» تمامًا.

واصلت الخالة حديثها بلا انقطاع، بينما كنت أفكر في تلك اللحظة وفي تلك الحجرة المظلمة الصغيرة الواقعة في تلك الضاحية المرعبة، والتي لا توجد بها شوارع مضيئة.

شكرت الله عندما عادت «شيمين» للعمل قبل نهاية الأسبوع، لكنها كانت لا تزال ضعيفة .. تذكرت أن «شيمين» لم تخبرني عن خالتها من قبل، لكنني لم أشأ أن أسألها، وإنما أخبرتها أنني قلت للبيض: إنها مريضة، وإن أخيها أخذها إلى نوكانينج، غير أنهم لم يحاولوا مجرد معرفة الأمر .. إن أولئك البِيض قوم لا يشغلهم ما يحدث للسود، وما عليك إلا أن تكذب عليهم أية كذبة سوف يسمعونها دون أدنى اهتمام، لكنهم نادرًا ما يصدقونها .. إنهم دائمًا الذين يسألون والشخص الأسود دائمًا هو المُطالَب بتقديم الإجابات.

أخبرتني «شيمين» بكل شيءٍ .. لقد ذهبت إلى امرأة متخصصة في مثل هذه الأشياء فأمسكت المرأة بإبرة حادَّة واتجهت بها صَوب الرحم، ثم تحسست داخل الرحم حتى شعرت بالبويضة فقامت بثقبها وبعد ذلك أعطت «شيمين» شيئًا للحدِّ من النزيف.

ذات مساء على العشاء كانت «مسز بلوم» تتحدث مع «كيت» عن الكلاب، وفي كل مرة قمت فيها بإحضار شيء إلى المائدة كنت أحاول معرفة وفهم ما تقولان، لكنني لم أستطع أن أتبيَّن شيئًا سوى أنهما كانتا تتحدثان عن الكلاب، وعن شيء شائع في المدن الكبرى بأمريكا مثل نيويورك مثلًا، حتى سمعت أن «مونتي» و«مالان» سوف ينعمان بمقبرة جميلة.

في الصباح التالي — وأنا جالسة في حجرتي — جاءني صوت «شيمين» عبر السور؛ فخرجت من الحجرة وسمعتها تقول لي: هاي أختي، إليك خبرًا غريبًا .. أتعرفين ما هو؟

قلت: ماذا؟

أجابت: أولئك البِيض يفعلون أشياء تغضب الرب، إنهم من أكثر الناس الذين رأيتهم إلحادًا؛ فلقد قالت السيدة التي أعمل عندها: إن الناس في جرين سايد يرغبون في شراء أرض؛ لكي يدفنوا فيها كلابهم .. نعم، لقد سمعتهم وهم يقولون ذلك في حجرة الجلوس عندما كنت أُقدِّم لهم القهوة ليلة أمس .. هيه، يا إلهي، فليأتِ أجدادنا لإنقاذنا!

قلت: وأنا أيضًا سمعت «مسز بلوم» وهي تتحدث مع ابنتها في ذلك الشأن، وفي الحقيقة لم أستطع سماع كل شيء، لكنني أقسم بأمي أن يومًا ما سيأتي يجلس فيه الكلاب على المائدة ويستخدمون الشوكة والسكين.

تنهدت «شيمين» وقالت: لماذا لا يقدمون لي بعض تلك النقود التي ينفقونها في شراء الأرض وعمل الأضرحة حتى يمكنني شراء بعض الجوارب! أقسم بأمي إنني لا أملك شيئًا أرتديه.

كنت على وشك المغادرة فتذكرت ما كنت أريد قوله .. كان على «شيمين» أن تدفع لتلك المرأة من أليكساندرا؛ التي قامت بإجهاضها، وكانت كل واحدة منا نحن العشرة تدفع

جنيهين كل شهر على أن تأخذ كل واحدة منا عشرين جنيهًا كل عشرة شهور؛ فقررنا أن تأخذ «شيمين» نصيبها هذه المرة رغم أنه لم يكن دورها؛ وهكذا قدمت لنا الشكر لمساعدتها.

تأخرت «مسز بلوم» في الاستيقاظ في ذلك الصباح فذهبت لإيقاظها كما أخبرتني، وقبل أن أبدأ في طَرْق الباب سمعت أصواتًا غريبة فسألت نفسي: ماذا يحدث مع «مسز بلوم»؟ وهل يجب أن أنادي عليها إذا كانت مريضة؟ .. ولكن، لا .. إن ما أسمعه ليس صوت شخص مريض وإنما هو صوت يوحي بالسعادة .. انحنيت قليلًا ونظرت من فتحة المفتاح فأصابتني الدهشة وظللت أسال نفسي: ما هذا؟ «مسز بلوم»! «مالان»! ماذا يفعلان؟ كان ذراع «مسز بلوم» ملتفًّا حول «مالان» ضاغطة إياه فوق بطنها، وكان جسدها يرتعش داخل قميص النوم، وقدماها ترتفع إلى أعلى وتنزل إلى أسفل بينما «مالان» صامت كشيء تم امتلاكه دون أي اختيار منه.

عندئذٍ فهمت ما قاله «ديك»، ثم سمعت نفسي أردد بكلمات تندفع كالريح من فمي: لقد أنقذني الله!

عادت الشرطة لاستئناف حملاتها، واقتياد السُّود الذين لا يحملون تصاريح، أو أولئك الذين يعيشون مع الخدم بطريقة غير رسمية إلى المخفر؛ لكن السبب الحقيقي وراء ذلك كان هو تلك القصة المنتشرة في طول جوهانسبرج وعرضها، والتي تقول: إن السود يقتلون كلاب البِيض بالسُّم؛ لأن الكلاب تعني بالنسبة لهم مزيدًا من العمل، ولقد سمعنا أن البِيض أرسلوا خطابات للصحف يستنجدون فيها بالشرطة لمراقبة الكلاب وإيقاف أي أعمال شريرة من جانب السود الذين لا يعرفون الصواب من الخطأ عندما يغضبون؛ مما قد يؤدي بهم إلى وضع السم للسيدات والسادة البِيض.

اقتحمت الشرطة الضواحي كما يقتحم الجراد حقول الذرة، وألقت القبض على كثير من الرجال، وكانوا يسألون كل شخص قائلين: أين السم؟ وأين تقوم بإخفائه؟ إذا أخبرتنا سنطلق سراحك .. أتسمع؟

كان «ديك» دائمًا يقول: من الخطأ أن تقتلوا الكلاب المسكينة ماذا تفعل هذه المخلوقات لكي تقتلوها؟ هل الكلاب هي التي تفرض علينا حمل التصاريح؟ وهل هي التي تضع تلك القوانين الجائرة والتي نعاني ونتألم بسببها؟ إن الذين يفعلون ذلك مجانين حقًّا ولا يعرفون ما يريدون، إنهم أغبياء! .. لكن «ديك» كان يرتعش ويتلعثم في الكلام عندما تحدَّث إليه الشرطي الأبيض، وكان يهز رأسه فقط، ثم راحوا يفتشون جيوبه وهو رافع كلتا ذراعيه مثل الفزَّاعة التي تقوم بإفزاع الطيور في الحقل.

خافت «مسز بلوم» على «مونتي» و«مالان»؛ فوضعتهما إلى جوارها في حجرة الجلوس، ولم تستطع أن تخفي قلقها الشديد حين استدعتني، وقالت: أتعتقدين يا «كارابو» أنه بإمكاننا الوثوق بالولد «ديك»؟

كان الجواب على سؤالها هذا صعبًا بعض الشيء، كما أنني لم أستطع أن أعرف ما تعنيه بقولها «إنه بإمكاننا»: فقلت: أنا لا أعرف يا سيدتي.

قالت: أنت تعرفين.

نظرت إليها وأضفت: أنا لا أعرف ما تقصدينه يا سيدتي.

قالت: أنا لا أقصد شيئًا، ولذلك أسألك.

ضحكت بينها وبين نفسها؛ لأنها كذبت هذه المرة ولست أنا التي كذبت عليها، لكنني لم أغضب؛ لأننا غالبًا ما نكذب على بعضنا مثلما قالت بعد خروجها من السجن بأن كل شيءٍ كان جميلًا رغم شعورها بالخجل؛ فهي ليست كالسود من أمثالنا الذين ينظرون إلى السجن على أنه لعبة شريرة من ألعاب الرجل الأبيض .. كنت أنا و«كيت» نمارس معًا لعبة الكذب، وكنت متأكدة أننا جميعًا نكذب على بعضنا بعضًا.

كانت «مسز بلوم» قلقة وبدا وجهها موحيًا بشيءٍ ما وهي تتكلم؛ مما جعلني أخاف منها وأشفق عليها في الوقت نفسه .. لقد رأيتها عندما عادت من السجن وعرفتها عندما كانت تصيح في وجه «كيت» وعندما تركت «كيت» البيت، لكنني لم أرها هكذا من قبل بعد أن سمعت بقصة وضع السم للكلاب .. العيون، الشفاة، فتحة الأنف، الأسنان، كل شيء كان مختلفًا ومليئًا بالكراهية، وبدت كأنها في طريقها لعمل شيء سيِّئ كما استطعت من خلال إمعان النظر إلى وجهها أن أعرف أنها كانت تريدني إلى جانبها.

وجدت نفسي أقول لها: يمكننا الوثوق بالولد «ديك» يا سيدتي.

ضمت «مونتي» و«مالان» إلى ذراعيها، وقامت باحتضانهما، ثم راحت تداعب رأسيهما؛ مما جعلهما يشعران بالأمان كما يشعر الطفل بين ذراعي أمه، وعندئذٍ قالت: حسنًا، والآن تستطيعين الذهاب.

ثم أضافت: لا تخبري أي شخص أنني سألت عن «ديك» .. إيه!

عندما أخبرت «ديك» بما قالته لي شعر بالقلق فقلت له: إن الأمر لا يدعو للقلق .. إنه لا شيء.

قال «ديك»: لم أكن أفكر من قبل في مشاركة أولئك الذين يضعون السم للكلاب، لكن الشرطة جاءت، وأنا الآن لا أهتم.

سألته: هل كنت ستضع السم للكلاب إذا طلب منك أحدهم أن تفعل ذلك؟

أجاب: لا .. لكنني لا أهتم.

في اليوم التالي توجَّهت «مسز بلوم» إلى «ديك» وقالت: عليك بالذهاب فأنا لم أعد في حاجة إلى عملك.

بكى «ديك» وراح يتساءل: هل السيدة لا تثق بي إلى هذا الحد؟

ثم أضاف وهو يغادر: لم يخطر ببالي أبدًا أن شخصًا أبيض يمكن أن يخاف مني!

صاحت «شيمين» من الفناء الآخر قائلة: هيه، إن البوير[٢] يغضبون.

وقالت «مسز بلوم» إنها ستستأجر رجلًا بعد الانتهاء من هذه المشكلة.

جاءني خطاب من أبي وأمي في فوكنج أخبراني فيه أن خالي قد مات، كما أخبراني بموت آخرين، قالا لي بأنني لا أتذكر بعضهم، لكنني كنت متأكدة أنني أعرفهم كما عرفت أسماء بعض المرضى؛ فتوجهت إلى «مسز بلوم» وسألتها عن إمكانية ذهابي إلى بلدي، لكنها بادلتني بسؤال آخر، وقالت: متى تُوفِي؟

أجبت: منذ ثلاثة أيام يا سيدتي.

– إذن، لقد دفنوه.

– نعم.

– ولماذا تريدين الذهاب إذن؟

– لأن خالي كان يحبني جدًّا يا سيدتي.

– وماذا ستفعلين هناك؟

– سوف أحمل دموعي وكلماتي الحزينة إلى قبره، وإلى قبر خالتي العجوز يا سيدتي.

– لا، لا تستطيعين الذهاب يا «كارابو» .. ألا تعرفين أنك تعملين عندي ومن أجلي؟

– نعم سيدتي.

– أنا التي تدفع لك أجرك وليس أهلك.

– يجب أن أذهب يا سيدتي فتلك هي تقاليدنا.

توقفت لحظة دخلت بعدها المطبخ، ثم خرجت وقالت: إذا شئتِ الذهاب يا «كارابو» فلن أدفع لك أجرة اليوم الذي ستذهبين فيه.

– أفقد أجري يا سيدتي؟!

– نعم، «كارابو».

---

[٢] Boer: شخص جنوب أفريقي من أصل هولندي. (المترجم)

في اليوم التالي أخبرت «مسز بلوم» أنني سأذهب إلى فوكنج بلا عودة، وطلبت منها إعطائي خطابًا يُفيد أنني كنت أعمل عندها، فسارعَتْ بكتابة الخطاب دون ترددٍ ومن غير أن تفتح فمها أو تحرك شفتيها .. كتبَتْ في الخطاب أنني عملت عندها لمدة ثلاث سنوات لا أكثر؛ وعندئذٍ عاودتني ذكرى «ديك» وكيف أنها قامت بالاستغناء عنه في لحظة؛ فشعرت — فجأة — بألمٍ ما في قلبي.

لململت أشيائي ورحلت قبل حلول الصباح التالي، وكان لدى «شيمين» قصتها الخاصة التي ترغب في قولها لي حين جاءت لرؤيتي في حجرتي، وقالت: لقد تركني «تيمي».

سألتها: لماذا؟

أجابت: لأنني تخلصت من الطفل.

– ألم يوافق على فعل ذلك؟

– لا.

– هل ظهرت عليه علامات القلق عندما قلت له إنك حامل؟

– كان قلقًا مثلي كما تعرفين يا «كارابو»، لكنه قال لي إنني إذا قتلت واحدًا؛ فذلك يعني أنني سأقتات على كل أطفاله عندما نتزوج.

– أتعتقدين أنه كان يَعْني ما يقول؟

– نعم، «كارابو»، وقد قال أيضًا إن والديه سيسعدان جدًّا إذا عرفا أن المرأة التي ينوي الزواج منها ستساعد في نمو بذرته.

كانت «شيمين» تبكي بهدوء، وحين حاولت إخبارها أن «تيمي» تركها لأنه لم يشأ منذ البداية أن يتزوجها، لم أستطع، كما لم أجد شيئًا أقوله سوى: لا تبكي يا أختي، لا تبكي.

ثم قدمت لها منديلي.

كانت «كيت» في مكانٍ بعيدٍ جدًّا لا أستطيع تذكره، لقد عادت أثناء مغادرتي فتحدثت مع أمها بشأن إبقائي غير أن أمها لم تهتم، وحتى أنا لم أكن مهتمة.

بعد ساعة واحدة كنت في محطة الأتوبيس المتجه إلى فوكنج، وأثناء الساعات الأولى من الرحلة لم أشعر بأي شيء تجاه البيت الذي كنت أعمل فيه؛ فلقد أحسست أنني شخص آخر، وكانت أفكاري تتأرجح بين «مسز بلوم» وخالي وأبي وأمي وفوكنج وبلدي حتى غلبني النوم، لكنه كان نومًا متقطعًا؛ فاستيقظت مرات عديدة أثناء الرحلة، ويبدو أنني رأيت — في نومي المتقطع أو في الحالة التي بين النوم واليقظة — عربة حمراء تنطلق من خلفنا، لكنني لم أستطع أن أراها أبدًا كلما نظرت من نافذة الأتوبيس.

كانت الأحلام والرؤى تروح وتجيء، فطالعني «تيمي» وهو يتهم «شيمين» أنها قتلت بذرته التي أراد أن يثبت بها لأمه أنها امرأة يمكن لبذرته أن تنمو فيها .. رأيت أيضًا «ليليان جويي» وهي تقول لنا: يجب أن يكون ذهابك إلى السجن من أجل شيءٍ كبيرٍ وإلا فإنك ستخرجين بقلبٍ نازفٍ، وعقلٍ مرهقٍ.

توقف الأتوبيس لحظة فاستيقظت من غفوتي، وتذكرت نادي الغراب الأسود، نادي النساء، هيه لقد طافت بذاكرتي أيضًا تلك الكذبة التي أخبرت «مسز بلوم» بها بشأن البرقية التي تسلمتها من أمي، وقالت لي فيها إنها مريضة جدًّا؛ واستطعت عندئذٍ أن أقضي إجازة جميلة.

كانوا يقومون بأعمال حفر في الطريق، فامتلأ الأتوبيس بالتراب، وعندما غلبني النوم مرة أخرى رأيت السيارة الحمراء خلفنا تمامًا، لكنني حين استيقظت لم أجد لها أثرًا.

ظلت الذكريات تلاحقني في نومي ويقظتي .. ذكريات كثيرة وأحلام لم يستطع صوت الأتوبيس المُروِّع أن يوقفها .. «مونتي» و«مالان»، السيدة «كيت»، قوم آخرون وأشياء كثيرة، لكن الأتوبيس كان يمضي الآن في طريق ممهدة وجميلة وتحيطها الأشجار من كلا الجانبين، فقلت لنفسي: يا له من لغوٍ كل ذلك الذي أفكر فيه!

ساعدني اهتزاز الأتوبيس على النوم مرة أخرى؛ فحلمت هذه المرة بمن يقول لي: انظري يا «كارابو»، لقد ماتت كلاب السيدة، لقد قتلتهم بالسُّم بعد أن طردتني من وظيفتي، ألم تطردك أنت أيضًا؟ ومن أجل ماذا؟ من أجل لا شيء! .. لقد قتلت الكلبين حتى أشعر بأنها طردتني من أجل شيء ما.

صرخت قائلة: لا يا «ديك»، لا يا «ديك».

بعد أن صرخت باسم «ديك» قفزت من فوق المقعد؛ فاستيقظت وقد ارتطم وجهي بالنافذة، وكان العرق يغمر جبهتي.

أخبرت أبي بقصتي فقال لي: لا يهم طالما أنك بصحة جيدة، إن العامل يموت يا ابنتي، لكن العمل لا يموت وهو موجود دائمًا .. عندما كنتُ صبيًّا وقويًّا كان هناك كثير من العمل ولم يكن الرجل الكسول بقادر على القول بعدم وجود عمل، لكن الناس هذه الأيام مختلفون.

قلت: تلك الأيام قد ولَّت بابا، ويجب أن أعود للمدينة بعد أن أستريح قليلًا للبحث من جديد عن عمل؛ إذ يجب أن أعتني بك وبأمي فالناس هذه الأيام فقراء جدًّا ولا يستطيعون مساعدتكما.

كان لا بد من العودة إلى جوهانسبرج حيث غزارة الحياة وتنوعها؛ إذ إننا هنا في فوكنج لا نفعل شيئًا سوى مراقبة شروق وغروب الشمس بالإضافة إلى صعوبة العيش في ظل ظروف اقتصادية بالغة القسوة؛ لذلك أخبرت «شيمين» أن تفعل ما في وِسْعِها للحفاظ على وظيفتها.

بعد أسبوع من عودتي إلى فوكنج أبصرت سيارة حمراء، وكانت امرأة بيضاء جالسة إلى جوار السائق .. عرفت في الحال أنها سيارة «مسز بلوم»، وكان الرجل الجالس إلى جوارها يبين لها الطريق؛ فقد رأيته وهو يشير إلى بيتنا حيث كنت أجلس .. ارتجف قلبي قليلًا بعد أن خرج كلاهما من السيارة، وتقدَّم الرجل نحوي، ثم قدمت له المرأة البيضاء الشكر بعد أن تبادل معي الحديث قليلًا.

كنت أنظر إلى قطعة القماش التي كنت أعمل فيها عندما بدأتْ تتحدث معي، فلم أكن في الحقيقة أعرف ما أفعله، ولم أستطع النظر إليها .. ثَمَّة ابتسامة رقيقة ولكنها مرهقة كانت ترتسم فوق وجهها، سارعت بالدخول إلى البيت وأحضرت مقعدًا منخفضًا، وطلبتُ منها أن تجلس، لكنني تذكرت فجأة أن البِيض لا يرغبون في أشياء كثيرة عندما يقومون بزيارة السُّود لأول مرة مثل الجلوس، أو شرب المياه، أو الدخول إلى البيت، هكذا فعل القس الأبيض حين جاء لزيارتنا، وهكذا كنت مرتبكة حين ذهبت مع «كيت» في سيارتها إلى بلدتي فوكنج في عيد الفصح؛ ولم أدرِ يومئذٍ ما يمكنني عمله.

قالت «مسز بلوم»: هل ترغبين يا «كارابو» في العودة للعمل عندي؟

أجبت: لا أعرف، ويجب أن أفكر أولًا.

قالت: هل تستطيعين التفكير في الأمر والانتهاء منه قبل صباح الغد؟ حيث يمكنني الذهاب والنوم في فندق المدينة على أن أعود غدًا صباحًا، وإذا كان جوابك بنعم؛ فإنه بإمكانك العودة معي.

تمنيت لو أنها قالت إنها تأسف لطردي، ولم أكن أعرف طريقة تجعلها تقول ذلك؛ فالبِيض لا يتأسفون أبدًا لشخص أسود، كما أنها لم تفعل ذلك من قبل فرحت أفكر في طريقة تجعل عودتي معها أمرًا صعبًا، ثم قلت لها: أنا لا أعرف، يجب أن تسألي أبي أولًا فهل أنادي عليه؟

أشارت برأسها وقالت: نعم.

قمت باستدعاء أبي وأمي فقاما بتحيتها، بينما رحت أنا لإحضار المقاعد، ثم أخبرتهما بما تريده «مسز بلوم».

تشاورت في الأمر مع أبي وأمي، ثم قلت لهما: إذا وافقتما فسوف أفكر في الأمر وأخبرها غدًا.

قال الأب: إن الأمر متوقفٌ على ما تشعرين به يا ابنتي.

قلت مخاطبة «مسز بلوم»: إذا شئت أن أفكر بالأمر فإنني أريد أولًا أن تدفعي أكثر؛ لأن راتبي ضعيف جدًّا.

سألتني: كم تريدين؟

– أربعة جنيهات على الأكثر.

ثم نظرت إلى الأرض لحظة، وأضفت: كما أريد إجازة لمدة أسبوعين في عيد الفصح؛ حيث إن إجازة نهاية الأسبوع لا تكفي.

هكذا قلت، وأنا أفكر بأنها إذا كانت تريدني حقًّا فإنها ستوافق؛ وعندئذٍ يمكنني التأكد من شعورها بالأسف لفقداني.

قالت «مسز بلوم»: أستطيع أن أعطيك أسبوعًا واحدًا؛ لأنك — كما تعلمين — تنعمين بما يُشبه الراحة عندما أذهب أنا إلى دوربان في الشتاء؟

قلت لها: سوف أفكر في الأمر.

ثم غادرت.

في اليوم التالي كنت قد حزمت أشيائي وأصبحت مستعدة للعودة معها، وعندما جاءت بدت سعيدة جدًّا وأكثر طيبة، فشعرت بثقة في نفسي لم أشعر بها من قبل أبدًا، ثم قالت لي: لن تجدي «مونتي» و«مالان».

– أوه؟!

– نعم، لقد سرقهما شخص ما في اليوم التالي لرحيلك، ولم يعثر عليهما البوليس حتى الآن .. أعتقد أنهما ماتا.

فكرت في «ديك» وفي الحلم الذي رأيته في الأتوبيس، فهل استطاع أن يفعل ذلك؟ وهل جاءت هذه المرأة لأعود معها؛ لأنها فقدت حيوانين كانت تحبهما كثيرًا؟

قالت «مسز بلوم»: أنت تعرفين يا «كارابو» أنني أحب شعبك وأحب الأفارقة.

فسألتها على الفور: وهل تحبين «ديك» وتحبينني؟

مسألة تذوق

أليكس لاجوما
جنوب أفريقيا

ولد أليكس لاجوما في مدينة كيب تاون عام ١٩٢٥م، وغادر جنوب أفريقيا مع عائلته سنة ١٩٦٦م، وكان ممنوعًا من الدخول من قِبَل حكومة جنوب أفريقيا بسبب أنشطته السياسية .. في عام ١٩٦٢م وضعوه تحت الحراسة لمدة خمسة أعوام .. كتب «الحبل المثلث» عام ١٩٦٤م، و«الوطن الحجري» ١٩٦٧م، و«نزهة في الليل»، وبعض الروايات والقصص الأخرى.

كانت الشمس متألقة باتجاه الغرب، والسحب الرقيقة فوق الأفق تبدو كالبيضة المنشطرة إلى نصفين، ويحدها اللون الأصفر المشرق حين كان الولد الصيني واقفًا يلهث بجوار الإناء الموضوع فوق النار، وهو يقول: يجب أن يغلي الآن.

كان الإناء متذبذبًا فوق قالبين من الطوب وحجر ناعم .. أشعلْنا النار بحرص لنصنع القهوة، وظللنا ننتظر غليان الماء ونحن نراقبه باهتمامٍ شديدٍ كما لو أن امرأة تنتظر ميلاد طفل .. امتلأ سطح الماء بالفقاعات؛ فألقى الولد الصيني بعض القهوة في الماء وراح يقلب الإناء .. كان قصيرًا ذا شعر رمادي مجعد، ووجه كبير هادئ وتعلو، ملامح وجهه مسحة من الصبر وكأنه اعتاد أن يفعل الأشياء ببطءٍ وعناية، غير أن عينيه كانتا سوداوين لا تستقران على حال مثل زوج من الصراصير.

قال ناصحًا: لنتركها قليلًا.

وضع بقية القهوة جانبًا، وأخرج من جيبه خرقة قديمة لفها حول يده، ثم رفع العلبة من فوق النار، ووضعها بعناية فوق الرمل بجوار قالب الطوب.

كنا قد انتهينا لتوِّنا من العمل في خطوط السكك الحديدية، ومضينا نحو المعسكر على بُعد ياردات قليلة من الجسر .. كان الصدأ يُغطي حديد المكتب المجعد المليء بخيوط العنكبوت، والأعشاب الضارة تكسو الرصيف المحطم، وكانت التدويرة الأسمنتية لا تزال في مكانها، لكن الشرخ أصابها؛ فبدت كأنها لافتة للترحيب بزائري مدينة الأشباح.

تناول الولد الصيني علب اللبن النظيفة وقام بترتيبها، فتقدمتُ إلى العارضة الخشبية، وانتظرتُ بداية طقوس صب القهوة .. بدأ الولد الصيني يلف يده فوق العلبة؛ استعدادًا لصب القهوة، لكنه لم يفعل وراح يراقب شيئًا ما خلفنا.

أصوات مزيج من الحفيف، والخشخشة، والطرقعة كانت تنبعث من بين الأغصان والفروع .. نظرت إلى الوراء، وإلى أعلى؛ فتراءى أمامي بوضوح ظل طويل لرجل خارج من المزرعة .. كان الرجل نحيلًا ومقيدًا وذا وجه أبيض شاحب ولحية صفراء بلون الذهب، ولم يكن من العسير ملاحظة تلك الخطوط السوداء القذرة حول فمه وتحت عينية وفوق رقبته .. كان شعره متناثرًا، وغزيرًا يتساقط من الخلف متسللًا إلى رقبته وحول صدغيه، وكان يرتدي حُلَّةً قذرةً من الجينز القديم الباهت اللون ومعطفًا من الجلد الممزق.

وقف أمامنا في ترددٍ، وراح ينظر نحوي، ثم نحو الولد الصيني، وما لبث أن عاودني بنظراته وهو يتحسس فمه بيده، وقال: لقد شممت رائحة القهوة.

أومأ الولد الصيني إلى الرجل الغريب الأبيض وخاطبه قائلًا: اجلس، سوف نتناول العشاء.

كشَّر الأبيض قليلًا، وظل يلف حول العارضة الخشبية بحيرة وارتباك دافعًا إياها بحذائه القديم إلى أعلى دون أن يقول شيئًا سوى مراقبة ما يحدث، بينما تناول الولد الصيني علبة أخرى من علب اللبن النظيفة ورفع الإناء من فوق النار، وبدأ يصب القهوة في العلب، ثم رشف رشفةً كبيرةً بصوت واضح، وقال: كان من المفترض أن نتناول بعض الخبز الناشف فلا شيء يعادل الخبز الناشف مع القهوة.

قال الولد الأبيض: السجق.

– هاآآه.

– السجق مع القهوة.

قطب الولد الصيني جبينه، وسمعته يقول: أووه!

ثم سأل: هل أنت ذاهب إلى مكان ما أيها الأبيض؟

«كيت تاون» فقد أحصل على وظيفة هناك .. ربما وظيفة في سفينة يمكنني من خلالها التوجه إلى أمريكا.

قلت: إنهم كثيرون أولئك الذين يرغبون في الذهاب إلى أمريكا!

رشف الأبيض قليلًا من القهوة وقال: نعم .. لقد سمعت أن هناك مالًا كثيرًا وطعامًا كثيرًا.

ردَّ الولد الصيني قائلًا: أتتحدث عن الطعام؟ لقد رأيت ذات مرة صورة في كتاب عن الطعام هناك عبارة عن قليل جدًّا من الدجاج المحمر سهل التفتت يُسمونه غلة، وبعض الفطائر، ومرق اللحم، وبطاطس محمرة، ونوع جديد من البازلاء الخضراء، كل شيء مصنوع بالألوان.

قلت ساخرًا: ناوِلني لحم الحمل المشوي.

فقال الولد الأبيض: لو أنني أحصل على مثل هذا الطعام؛ لما تردَّدتُ في الانقضاض عليه، والتناول منه حتى الانفجار.

رشف الولد الصيني قليلًا من القهوة، ثم قال: عملت ذات مرة وأنا صغير جرسونًا في أحد المقاهي الكبيرة؛ فرأيت بنفسي ما كانوا يتناولونه من طعامٍ مغشوشٍ.

قلت: هل تذكر حين ذهبنا للشراب، وتناولنا أكواز الذرة والفول حتى انتفخنا؟

أضاف الولد الصيني بطريقة غريبة: أتمنى أن أجلس في يوم ما بأحد المقاهي الكبيرة، وألتهم بطة كاملة، وبطاطس محمرة مع سلاطة البنجر، وطعام الملائكة، وكعكه من المربى والفاكهة، ثم أشعل سيجارًا في النهاية.

أجاب الولد الأبيض: إنها مسألة تذوق! فبعض الناس يحب الدجاج، وبعضهم الآخر يحب رءوس الأغنام وحبات الفول.

قال الولد الصيني متجهمًا: مسألة تذوق؟! .. إنها مسألة نقود يا صديقي .. لقد عملت ستة أشهر في ذلك المقهى ولم أر أبدًا أن أحدهم طلب رءوس الأغنام أو حبات الفول.

سأل الأبيض: هل سمعت عن روَّاد تلك المقاهي الكبيرة؟ لقد سكب أحدهم ذات مرة آخر ما تبَقَّى من القهوة في كوب الفنجان، ثم أخرج سندويتشًا واستدعى الجرسون وطلب منه كوبًا من الماء، وعندما جاء الجرسون بكوب الماء سأله: لماذا لا تعزف الفرقة الموسيقية؟

ضحكنا قليلًا، فأضاف الولد الصيني وهو يسعل ويتمتم: كما طلب آخر السجق والعصيدة، وعندما أحضر له الجرسون ما أراد قال له: أيها الرجل .. لقد أحضرت لي طبقًا مكسورًا! .. لكن الجرسون قال له: أوه إنه ليس مكسورًا .. إنه السجق.

ضحكنا أكثر من المرة الأولى، وراح الولد الصيني يتطلع إلى السماء باتجاه الغرب .. كانت الشمس على وشك الغروب وعبر الأفق بدت السُّحب معلقة كالخرقة البالية الملطخة بالدم.

كانت الأغصان تتمايل بفعل هبات النسيم، ومن خلف خط السكك الحديدية سمعنا أحد الطلاب يزعق بصوتٍ عالٍ.

قال الولد الصيني: توجد عربات بضائع فارغة تمضي من هنا إلى ما حولنا، وعلينا أن نساعد الأبيض؛ إذ ربما يستطيع الذهاب إلى «كيت تاون».

ثم نظر إلى الأبيض مستطردًا: هناك مُنحنًى يمكنك من خلاله أن تقفز إلى القطار وسوف نُريك إيَّاه.

وأومأ لي قائلًا: جون .. عليك أن تهتم بالبط.

أفرغت ما تبقى من القهوة، وكانت النار قد خمدت وصارت كومة الرماد .. فتش الأبيض في جيب معطفه الجلدي فلم يجد سوى ثلاث سجائر؛ فقدَّم واحدة لكل منا، ثم رفع الولد الصيني غصنًا من الخشب المحترق أشعلنا به سجائرنا. وقال متفحصًا طرف السيجارة المتأجج: سيجار طيب جدًّا.

عندما انتهت القهوة والسجائر كانت الشمس في طريقها للغروب، فاكتست الأرض بظلال سوداء، وتلوَّنت باللون الأرجواني، وبدت ظلال الأغصان كالتنين.

كانت عربة الفحم تسير ببطء، فمضى الأبيض نحوها وهو يراقب قبضة الحديد في نهايتها حتى وصل إليها وثبت قدميه.

استطعنا رؤيته وهو معلق عند حافة العربة .. كان يشد نفسه إلى أعلى، وكنا نسمع طرقعات القطار من بعيد.

لوَّح لنا بيده من بعيد وهو يفتح باب العربة فرفعنا أيادينا نردُّ التحية؛ عندئذٍ قال الولد الصيني: لماذا لا تعزف الفرقة الموسيقية؟ .. يا للجحيم!

الحفلة

جيمس ماثيوز
جنوب أفريقيا

ولد «جيمس ماثيوز» عام ١٩٢٩م في جنوب أفريقيا .. عمل في الصحافة مدة طويلة .. وتُرجِمت أشعاره وقصصه إلى عدة لغات، وقد نشرت أولى مجموعاته في السويد .. صدرت أولى مجموعاته الشعرية «صحية الغضب» في أمريكا وهولندا وفرنسا وألمانيا عام ١٩٧٣م، لكن ديوانه «صيحة الأصوات السوداء» تعرض للرقابة، وفي عام ١٩٧٦م تم اعتقاله لمدة أربعة أشهر كتب خلالها مجموعة من القصائد جمعها في ديوان بعنوان «أعطنى كرات اللحم يا جون».

حجرة كبيرة وفسيحة، يتجاوز اتساعها كل البيوت التي شاهدها من قبل، وحين راح يعقد مقارنة بينها وبين منزله المُكوَّن من حجرتين صغيرتين للنوم وحجرة للمعيشة والطعام؛ عرف أن منزله يعادل نصف هذه الحجرة الكبيرة ذات الطلاء والقماش المزركش والحوائط المزينة بمرايا ذات إطارات من الذهب .. عند أحد أركان الحجرة الكبيرة كان من اليسير رؤية تلك التماثيل المنحوتة من العاج، أما السجادة فكانت ناعمة ومزدهرة كالمروج الخضراء.

الحجرة الكبيرة والناس كثيرون حتى إن الحجرة لم تكن كافية لاحتوائهم فكانوا يتخبطون ويندفعون نحو الصالة المؤدية إلى حجرات أخرى.

ضغطت المرأة بيديها فوق المقعد في محاولة للنهوض فبادرها بابتسامة رقيقة مهذبة، وحين شعر بفخذها يلامس فخذه حاول أن يبتعد بقَدَمه قليلًا غير أن محاولته لم تكن

جادة؛ فراح يُغيِّر وضع أردافه كي ينهض لكنها عاجلته بنظرةٍ خاطفةٍ، ثم ابتسمت، وقالت: لا تنهض من فضلك .. إنه الزحام .. زحام بعض الشيء، وعلينا أن نعتاد ذلك؛ إذ يجب أن نملك القدرة على الاعتياد.

تحرك بجسده قليلًا حتى أصبحت المسافة بينهما أكبر مما كانت عليه ثم قال: لقد أخطأت حين شغلت مساحةً كبيرةً.

– كرم ولطف منك أن تقول ذلك، لكنني أخشى أن أكون أنا التي أخطأت .. نعم أنا التي أخطأت.

ثم ضحكَتْ وهي تُربِّت فوق أردافها مستطردة: لقد شغلت أكثر من مساحتي المفروضة.

أومأ برأسه مشيرًا إلى أن لديه أيضًا متاعبه مع الجسد الذي لم يكن دائمًا كما يرغب أن يكون؛ وهكذا فهو متعاطِف معها.

قالت: زحام .. زحام بعض الشيء.

أجاب: نعم.

– ماذا حدث؟ أين الشراب؟ هل شربت شيئًا؟

– لا.

– انتبه لمقعدي .. سأرى ماذا يمكنني أن أفعل.

وسرعان ما اختفت بين الأجساد في الزحام.

غيَّر من جلسته ومدَّد كلتا يديه فوق ذراع المقعد، ثم مال بظهره للوراء فاردًا قدميه، ولم يَعُد قادرًا على رؤية الناس من حوله .. تطلَّع إلى جمهور الحاضرين المحتشدين في الحجرة فأبصره كثيرًا من النساء اللاتي يفوق عددهن عدد الرجال .. كانت النساء من ذوات البشرة البيضاء، وأربعة فقط من الرجال السود، هو وثلاثة آخرون من الملونين يعرفهم معرفة جيدة، ولا يعرف أحدًا من الرجال البِيض.

كان غريبًا وسط حشد من الغرباء رغم أنهم جميعًا يتحدثون لغةً واحدةً .. تذكَّر لون بشرته؛ فأحس أنه في أرضٍ غريبةٍ فراح يُحدِّق في أرجاء الحجرة، ويتطلَّع بشغفٍ إلى أصدقائه الثلاثة؛ كي يقهر هذا الإحساس ويستعيد ثقته بنفسه، ثم انتصب واقفًا إلى جوار ذلك الحشد من الأجساد الملتصقة بعضها بالبعض حتى كاد أن ينخرط بينهم .. ظل يرمقهم بنظرات سريعة حتى توقفت عيناه عند تلك المجموعة في نهاية الحجرة؛ حيث كانوا يتحدَّثون بصوتٍ عالٍ، بينما كانت امرأة ما تُشير بيدها، وتتلوى في طريقها عبر الحجرة

مثل راقصي الكونجا .. حاول أن يشق طريقه نحوهم فأبصر «رون» ممسكًا بالكأس في يده، وملوحًا في الهواء باليد الأخرى، وحين تجمعوا في حلقة مقفلة لم يستطع أن يرى سوى ظهورهم، غير أن تلك المجموعة قد أثارت انتباهه دون أن يعرف السبب، غير أن «رون» كان يُدير النقاش.

كان يحسد «رون» على هدوئه وقدرته على الاختلاط بأولئك الناس محطِّمًا حاجز اللون؛ مما جعل الأمر يبدو بالنسبة له طبيعيًّا وكأن شيئًا لا يعنيه .. كيف استطاع أن يعبُر تلك الفجوة؟ ظل يحسده دون حقد، وتمنى لو استطاع بمرور الوقت أن يكتسب هذه النعومة في التصرف، والقدرة على التخلص نهائيًّا من القلق الذي يساوره الآن.

امتلأت الحجرة بأصوات كثيرة متداخلة، ولم يكن من اليسير التمييز بين تلك الأصوات .. امتزجت أصوات الرجال الخشنة مع ملاحظات النساء الحادة اللاذعة، وكانت الضحكات مدوية، وكذا صخب الآلات الموسيقية الرنانة .. تقافزت إلى أذنه كلماتهم المتناثرة مثل موجات الراديو المتداخلة، وكانوا جميعًا يثرثرون.

ضحك أحدهم قائلًا: «جاك» فعلها مرة ثانية! قد يعتقد شخص ما أن لديه إحساسًا.

تساءل عن هوية «جاك»، وما الذي فعله لإثارة اهتمام المُتحدِّث وفرحة المستمعين!

– هل ستذهب إلى حفلة «مارجوت» يوم الجمعة مساء؟

– نعم يا عزيزتي.

– من سيجذب انتباهها هذه المرة؟

– لا أحد يعلم، وإذا شئت أن أخمن — من خلال دعوتها السابقة — فإنه عبقري آخر تستطيع «مارجوت» إدراك موهبته .. هل أنتِ ذاهبة؟

– لا .. لست في حاجة شديدة لتناول وجبة.

عاودته الشكوك، فهل كان في غير حاجة لذلك؟ وكيف يتوق للتعامل معهم؟ تمنى لو كان طبيعيًّا وسط ذلك الحشد من الناس ذوي السلوكيات المختلفة والألسنة الحادة، وألا يكون في حاجة للدفاع عن نفسه.

أصرَّ «رون» على ذهاب «وليام» معهم، وكانت الحفلة من أجل نشر الكتاب الثالث لمؤلفه؛ حيث للنقد أهميته .. كان «رون» شديد الإعجاب به عندما نشر كتابه الأول، ثم أصبح مؤيدًا له بعد قراءته لبقية أعماله .. كان «رون» قد أخبره أن اللقاء سيكون منظمًا، لكنه تراجع في البداية غير أن الدعوة و«رون» جعلاه يعدل عن رأيه.

قال «رون»: اسمع يا «وليام» .. لقد عانيت كثيرًا من أجل دعوتك للحفلة؛ إذ يمكنك هناك مقابلة «كولن آشورت»، فلقد حان الوقت لمقابلة الناس؛ ولا بد من أن تتلمس طريقك.

ذهب قبل موعده بقليل وانتابه الخجل من فكرة المقابلة فسارع «رون» بتقديمه إلى «كولن»: إنه «وليام أبوللوس» .. إنه يقسم بك كاتبًا.

حرَّك يده في غير مودة لتحية ذلك الرجل الأبيض، وقال وهو يرفع رأسه: كيف حالك؟ .. ثم ما لبث أن احتقر نفسه لتفوهه بتلك البداية التقليدية التافهة.

قال «كولن» مخاطبًا «رون»: أوه .. إنه «وليام» الذي أخبرتني عنه.

ثم قال ل «وليام»: أعرف يا «وليام» أنك أيضًا تكتب، فهل لي أن أرى بعض أعمالك الآن؟

نظر بعينين متسائلتين وأحسَّ حرارة ساخنة تتدفق في عروقه، ثم قال متلعثمًا: نعم .. نعم.

انصرفت ربة البيت لاستقبال ضيفين آخرين، وكان الضيوف يملئون الحجرة بينما يُلوح «رون» بالتحية لهم ويتوقف قليلًا للحديث مع بعضهم ثم يواصل السير .. عندئذٍ انفصل «وليام» عن الآخرين واختار لنفسه مقعدًا.

امرأة جذابة ذات شعر أحمر كانت تتنقل بالصينية من مكان لآخر، وحين توقفت أمام «وليام» قدمت له كأسًا من الشيري؛ فابتسم لها.

كانوا جميعًا ظرفاء ومهذبين، وبهدوء انتقلت المرأة إلى شخص آخر في المقعد التالي، فراح «وليام» يخترق بنظراته صوب المرأة ذات الملابس الضيقة حتى تملكه — مرة أخرى — إحساس بأنهم يلعبون دورًا في السينما، وكان يرى حركاتهم ذات أبعاد ثلاثة، كما كانت ثرثراتهم تُضفي على المشهد مزيدًا من الإثارة.

غرق في أفكاره الخاصة متجاهلًا الجالسِين إلى جواره، وربما كان قد نسيهم .. كانت عيناه مصوبتين نحو شخصٍ معينٍ افتقده لحظة، ثم أبصره مرة ثانية.

استهوته المرأة التي لم تكن صغيرة وشابة، لكن طريقتها في الوقوف والجلوس والمشي كانت تُوحي بشبابها الرائع الذي انقضى .. كانت كمن تقوم بدور الأميرة أو الملكة .. رغب في متابعتها، وبشغف كان يطلع إليها وهو يُحصي عدد المرات التي فكَّر فيها جيدًا قبل أن يفقدها في النهاية.

لم يتوقفوا عن النظر إليه ومراقبته؛ فراح يتوخَّى الحذر في تصرفاته، وكَمَن يشعر بالذنب، كان يرفع رأسه مثل ولد صغير أمسكوه وهو يختلس النظر إلى أشياء ممنوعة، وحين اقتربت منه المرأة التي قدمت له الشراب — وكانت تحمل صينية تحوي أطباقًا من الوجبات الخفيفة، وطاسة من خليط الجوز والبندق، وكوبين من الشراب المسكر وعصير الليمون — قفز واقفًا على قدميه، لكنها جلستْ، وقالت: تفضل بالجلوس.

تحركت بجسدها لتفسح له مكانًا فغرق بجوارها في المقعد، ثم أضافت: أحضرت لك طعامًا؛ لأنك — كما يبدو — لم تتناول شيئًا منذ جئت، غير أنني رأيتك أخيرًا تشرب كأسًا.

– لا .. شكرًا.

لكنه أمام إصرارها شرب كأسًا أخرى، ثم وضع الكأس الفارغة بعناية في جانب الصينية، وكانت ابتسامتها الغريبة قد بدَّدت كثيرًا من حرصه وحذره.

– ماذا تعمل؟

– إنني أكتب أو على الأقل أحاول أن أكتب.

– هل لك كتابات مطبوعة؟

– خمس مطبوعات.

توقف عن الحديث وبدا خائفًا كتلميذ في مدرسة، فقالت بسرعةٍ واستفزازٍ: أين طبعت أعمالك هذه؟

– كل أعمالي تم طبعها ما عدا عمل وحيد نُشِر في لندن هو «بائعة الزهور».

– انتظر دقيقة .. أعتقد أنني قرأتها، أليست هي الرواية التي تقع أحداثها في سفينة تجارية كبيرة؟ لقد استمتعت بها؛ إذن أنت «وليام أبوللوس»؟

ابتهج وانتابه وهج الدفء عندما تذكرت اسم الكاتب.

ثم أضافت: أنت أيضًا الذي كتب «أمنية عيد الميلاد الساخن» و«العملة الذهبية» .. أوه .. لقد كنت على صواب حين قلت لنفسي: إن تلك القصص ليست من إبداع كاتب أبيض؛ فهي قصص واقعية جدًّا، كما أنها أكثر اقترابًا من الحياة.

تحسست كتفه بنعومة واستطردت: هل تعرف ماذا أعني؟ أرغب في القول إنني سعيدة بلقائك بعد أن استمتعت بقصصك .. حقًّا لقد استمتعت بها جدًّا.

ثم أشارت بيدها إلى صدرها: أنا «مارجوت بيرس».

لفَّ يده بحذرٍ شديدٍ حول يدها الناعمة، ثم تساءل بينه وبين نفسه عمَّا إذا كانت هي «مارجوت» نفسها التي قامت بدعوة أقبح الناس إلى مائدتها!

قالت وكأنها تؤكد له: يجب أن تأتي إلى مائدتي حيث الطعام والشراب؛ نستطيع أن نتبادل الحديث؛ فثمة أشخاص أودُّ لو تقابلهم.

حدثته عن بعض أسماء الكُتَّاب الفنانين والنحاتين الذين سمع عنهم من «رون» ولم يكونوا معروفين تمامًا، لكنهم في طريقهم نحو الشُّهرة؛ فانفجر ضاحكًا ولم يستطع أن يتمالك نفسه.

نظرت إليه بارتياك قائلة: هل دعوتي لك مضحكة إلى هذا الحد؟

– لا .. كنت أفكر في شيء آخر حدثني به شخص ما.

ثم قال لنفسه: شيء يبعث على المرح .. كيف يكون تناول الغذاء أو العشاء في بيت كبير وفوق مائدة طويلة مغطاة بقماش مُطرَّز بالذهب ومفارش بيضاء وصفوف من الملاعق والسكاكين .. إنَّ أُمَّه دائمًا تجهز الطعام ويتناولانه في المطبخ، ولا يستخدمون حجرة الطعام إلا في الإجازات والأعياد الدينية فقط.

– متى ترغب في الحضور؟ ومتى تستطيع؟ الجمعة القادمة؟ استطيع أن أكلف أحدًا بإحضارك أو أنك تفضل الحضور بالأتوبيس؟ أنا أقيم في «٣ شارع آنشور باي – طريق جون»، لن تخطئ في العنوان، فهو مبنى صغير مُكوَّن من شقق كثيرة في كل جانب.

رغب في الاعتذار وراح يفكر في عذر يتقدم به؛ إذ إن الفرق كبير بين حفلة كهذه ودعوة على المائدة، فهنا يوجد كثير من الناس يمكن الاحتماء بهم، كما يمكنه الانسحاب داخل نفسه أو وسط الزحام، لكن دعوة السيدة «مارجوت» سوف تتميز بمحبة أكثر وعدد أقل من الناس، وربما لا أحد على الإطلاق، فهل سيعرف كيف يتصرف؟ وماذا لو أساء التعامل مع الشوكة أو الملعقة؟ هل سيضحكون لخطئه الفادح، أو أنهم سيتجاهلون ذلك يتظاهرون بتبادل الحديث؟

أيًّا كان الأمر فإن كِلا الأمرَين مؤلم بالنسبة له؛ فيَجدُر به إذن أن يرفض الدعوة، لكنه كان راغبًا في صحبة أولئك الذين سمع عنهم؛ فهو في حاجة للاختلاط بهم، كما أنهم — بلا شكٍّ — يتوقون لذلك، لكنه لم يقرر بعد.

كان «رون» يتحرك عبر الحجرة هنا وهناك، وما كاد أن يقترب منه حتى انخرط وسط مجموعة أخرى .. خامره شعور مؤكد أن «رون» سيكون أول الحاضرين عند «مارجوت».

– لو جئت بالأتوبيس فلن أضايقك كثيرًا.

– ليست هناك أية مضايقات يا «وليام».

– أنا متأكد بأنني سأعرف المكان بطريقتي يا ماما.

– سأغضب جدًّا إذا لم تدعني «مارجوت» .. إن الجميع ينادونني هكذا.

ظل يردد اسمها مرات قليلة؛ فأحس طعمًا خاصًّا يتفجر فوق لسانه قبل أن يتفوَّه قائلًا: «مارجوت».

– عزيزتي «مارجوت» .. لم أتعرف بصديقك هذا فهو يبدو شابًّا رقيقًا .. إنه طويل، وذو شعر أسود كثيف، ووجه شاحب، وعينين متلائمتين مع شعره تغطيهما حواجب مخططة بالسواد، إنه يرتدي بذلة سوداء وربطة عنق سوداء رقيقة.

تطلعت «مارجوت» حولها قائلة: أوه .. أهو أنت؟ إنه «وليام أبوللوس» .. سيصير كاتبًا كبيرًا، وتذكر أنني من قال لك هذا.

ثم مالت نحو «وليام» وخاطبته قائلة: «وليام» .. إنه «إدوارد بلاكلي» اسم «بلاكلي» ووجهه كانا مألوفين .. لقد تذكر .. كان «بلاكلي» عضوًا في الحزب الليبرالي أو الكونجرس الديمقراطي، لم يكن متأكدًا في أي منهما .. شعر بالارتباك مرة أخرى وهو يمد يده للتحية.

– سيأتي «وليام» الجمعة القادمة وأنت بالطبع .. أليس كذلك؟

– بالطبع «مارجوت».

ثم قال ل «وليام»: هل تسمح لنا لحظة؟ .. إن بعض الناس يرغبون في لقاء «مارجوت».

أجاب «وليام»: بالتأكيد.

وشعر بشجاعة كافية حين أضاف: «مارجوت» .. سأراك يوم الجمعة.

– نعم، وأرجو أن تأتي ببعض أعمالك.

انحنى وهو يتنفس بعمق، فهل كان باستطاعته أن يتصرف بحرية دون ذلك الشعور الداخلي بالفزغ، والذي ربما لم يكن يخصه؟

عاودته أفكاره المزعجة .. هل كانت ستدعوه إذا لم يكن هو ذلك الكاتب الذي قرأت قصصه وأعجبت بها كثيرًا؟ وماذا ستكون ردود أفعالها إذا أخبرها بأفكاره هذه؟ قد تعتقد أنه جاء نزولًا على رغبة «رون»؛ أدى به هذا الهاجس إلى شكوك أخرى كثيرًا ما حاول أن يدفنها داخل نفسه.

قال «رون» هؤلاء الناس لا يهتمون بلون البشرة، وإنما يقبلون الشخص لذاته وليس طبقًا للونه.

– هل هم حقًّا كذلك أو أن ذلك ما يتظاهرون به؟

– وهل ستجلس فوق هذا المقعد بقية المساء؟

ثم وقف «رون» أمامه مستطردًا: ماذا حدث لمارجوت؟ .. لقد رأيتها تتحدث معك قليلًا منذ لحظة مضت.

– ذهبت مع شخص يُدعى «إدوارد بلاكلي»؛ حيث أخبرني أن بعض الناس يريدون مقابلتها.

– أوه .. «إدوارد» إنه يبدو عادة كالجثة بوجهه الشاحب وعينيه السوداوين .. وماذا عن «مارجوت»؟

– كانت هائلة وجميلة .. إنها.

– نعم أعرف لقد قامت بدعوتك؛ إذ إنها تعتبر نفسها راعية الفن ولو أنها كانت تعيش في القرن الثامن عشر؛ لتحول منزلها إلى صالون .. أوه، «وليام» أنت في تقدم، إنه الوقت الذي خرجت فيه من عزلتك، ففي مثل هذه الحفلات تلتقي بالناس ذوي الأهمية الذين يستطيعون مساعدتك إذا أحسنت التصرف.

لم يُجِب «وليام» بشيء، لكنه ظل يتساءل عن كيفية أن يحسن التصرف .. تذكر موقف «رون» منذ شهور تسعة عندما نشر أول قصة له فلم يتناولها «رون» بأكثر من اثنتي عشرة كلمة، ولم يطلب منه حينذاك مقابلة الأصدقاء البِيض الذين تحدَّث عنهم بحبٍّ كبيرٍ، أو لقاء أولئك الذين يراهم الناس غالبًا على صفحات الصحف المحلية؛ عندئذٍ شعر «وليام» بأنه ليس ممتنًا.

في المرات القليلة التي التقَيَا فيها وتبادَلَا الحديث كان «رون» يُعاود الإشارة إلى النقص الذي يعاني منه «وليام» نحو شعوره بالفن في كل أشكاله، غير أنه علَّق قائلًا: قصته أحدثت تغييرًا.

وقال له: لقد قرأت قصتك .. مجهود طيب ولا بأس به، فهل هي قصتك الأولى؟

أجاب «وليام»: لا، ليست الأولى فقد كتبت كثيرًا من القصص لكنها أول قصة يتم نشرها.

– ولِمَ كل هذا الكتمان والتحفظ؟ لماذا لم تخبرني أن لك اهتمامات إبداعية؟ هناك بعض الكُتَّاب من الشباب كان بمقدوري أن أقدمك لهم.

بعد نشر القصة الثانية والثالثة أصبح عضوًا بين النخبة المفضلة لدى «رون».

– تعالَ معنا غدًا مساء .. إن «توم هوبكيرك» يقيم حفلًا عند قمة «ديفيل».

أجاب «وليام»: لا.

مضت شهور عديدة و«رون» لا يكفُّ عن محاولاته في اصطحاب «وليام» الذي كان يجيب دائمًا بالرفض؛ حيث إن فكرة وجوده مع البِيض كانت وحدها كافية لإصابته بالرهبة؛ فقد كانوا يبتسمون له في العمل ويتبادلون معه الحديث، وسرعان ما يتجاهلونه بعد انتهاء العمل، ولا يبتسمون مرة أخرى إلَّا إذا أرادوا عمل شيءٍ آخر.

لكن مقاومة «وليام» انهارت أمام أحاديث «رون» الكثيرة عن الحفلات التي يرتادها، والناس الذين يقابلهم؛ فشعر بشوق للقائهم، وليصبح إذن واحدًا من مجموعة «رون» التي وصفها.

أخبره «رون» عن دعوة «كولن آشورت» فقبل الدعوة دون مقاومة كبيرة، وهناك قال له «كولن»: فلنندمج مع الآخرين.

أجاب «وليام»: لا، سأبقى هنا قليلًا فقد تأتي «مارجوت» لنستأنف حديثنا.

لم يستطع «كولن آشورت» أن يفهم شيئًا؛ فقد كانت «مارجوت» هناك وحيدة وكان وجه «وليام» ممتزجًا بفرح مليء بالشجن .. نظر إليه «رون» وهو يرفع حاجبيه، ثم تركه ومضى بينما امرأة أخرى كانت جالسة إلى جواره في استرخاء وهي تحدِّق فيه وكأنه تحفة غريبة، فقال لنفسه: يجب أن ترتدي نظارة.

ثم بادرت بسؤاله: أخبرني .. ماذا تعمل؟

سمع صوتها البارد وتابع طريقتها في الكلام؛ فأحس بقشعريرة تسري في جسده، وداهمه شعور سريع بالكراهية، فقال: أعمال .. أية أعمال؟

– نعم.

– أعمال في مكتب .. أنا.

فكَّر في القول إنه يعمل كاتبًا في محل تجاري، أو إنه يعمل ساعيًا، لكنها سارعت بالقول: أنا لا أعني وظيفتك أو نوعية عملك فلنترك ذلك جانبًا فهو شيء بغيض، وإنما أعني هل أنت ترسم أو تكتب؟ .. إذا راقني ما تفعل فسوف أساعدك كثيرًا.

– لا.

– تعالَ إذن .. أراهن أنك لا تقول الحقيقة؛ فإن الآخرين إما يرسمون وإما يكتبون.

لم يكن في حاجة للسؤال عن الآخرين الذين تقصدهم ولا حتى راغبًا في معرفة ما إذا كانت هي واحدة من أولئك المهمين الذين سمع عنهم من «رون».

– لقد أخبرتك بالحقيقة .. أنا لا أفعل شيئًا.

ولم يساوره أدنى قلق من جراء خداعها، لكنها لو سألت «رون» فإن الأمر سيكون سيئًا، ولن تجعله ينضم لمجموعتها.

حدَّقت فيه، وقالت بصوتٍ مرتفعٍ: أنت لا تكتب أو ترسم .. إنك مجرد ساعٍ!

أجاب بهدوء: هو كذلك بالضبط.

صاحت في وجهه: وإذن فماذا تفعل هنا؟

كانت كراهيته لها قد زوَّدَتْه بالقوة؛ فقاوم رجفته قائلًا: الشيء نفسه الذي تفعلينه أنت! إنني هنا لأنني مدعو.

ارتفع صوتها وكررت عدة مرات: أنا لا أريد هذا الوقح اللعين.

نهض الناس من مقاعدهم وهم يُحدِّقون وكان أنفها متأججًا، وصوت أنفاسها كالشخير بينما اندفع «رون» تجاههم فزعًا، ثم قال هاتفًا: سيدتي «ميريديث» .. ماذا حدث؟ .. ماذا جرى؟

قالت مشيرة بإصبع الاتهام إلى «وليام»: لقد أهانني هذا الساعي سليط اللسان.

وقف «رون» في مواجهته تمامًا وقال بصوت غليظ مليء باللوم والعتاب: انهض واعتذر لها في الحال.

نظر «وليام» إلى «رون» وقد فقد هدوءه ورصانته، وشعر بألم شديد يملأ كيانه، كما استشاط غضبًا؛ لأنه اعتبر ذلك خيانة من جانب «رون».

لو أخبرها أنه أيضًا كاتب كانت ستقبله وترضى عنه، وها هو «رون» يخبرها دون أن تسأله، وهنا ازداد إعجابه ب «رون» إلى حد الاحتقار وعرف عندئذٍ سبب تعاطف «رون» الشديد .. إن موهبته هو وأمثاله ضعيفة، وتجربتهم ضحلة .. إنهم كالعذراء يعرضون موهبتهم للبيع لمثل هذه المرأة، أو لمن شابهها.

إن «رون» قوَّاد كبير! إنه ضئيل أمام نفسه، ويحتمي بظلال السيدة «ميريديث».

ظل «وليام» يحسد «رون» ويتعجب لقدرته الهائلة على الحركة بينهم بسهولة ونعومة .. كان «رون» يمدُّهم بعذراء أخرى، فتدفق إلى رأسه فيضان من الدم، واجتاحه الغضب حتى أصبح عاجزًا عن الكلام.

نهض من مقعده واندفع في طريقه متجاوزًا ذلك الزحام الكبير دون أن يرى أحدًا، ودون أن ينتبه لنظرات الرضا والاستحسان في عيني «مارجوت بيرس».

ستة أقدام من البلاد

نادين جورديمر
جنوب أفريقيا

نادين جورديمر الحاصلة على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٩١م، من مواليد ١٩٢٣م في مدينة سبرنجز بجنوب أفريقيا، وتعيش الآن في جوهانسبرج .. كتبت عشر روايات وسبع مجموعات قصصية، وقد تمت ترجمة أعمالها إلى تسع عشرة لغة .. منعت حكومة جنوب أفريقيا بعض أعمالها بسبب وجهات نظرها السياسية الجريئة، ومقاومتها لسياسية التمييز العنصري .. هذه القصة مأخوذة من إحدى مجموعاتها القصصية بعنوان: Some Monday For Sure.

لم أكن أنا وزوجتي ممن يجيدون أعمال الحقْل والفِلاحة، لكننا قمنا بشراء مزرعة بأحد الشوارع الرئيسية على بُعد عشرة أميال من جوهانسبرج؛ لكي نفعل شيئًا مغايرًا ونضيف جديدًا إلى حياتنا، وها أنا ذا أراكم مشتاقين لسماع بعض الحكايات عن الهدوء والرضا اللذين تفرضهما حياة المزرعة، لكننا لم نحقق ما كنا نهدف إليه؛ نظرًا لحدوث أشياء أخرى في المزرعة غير معقولة أو متوقعة.

كنت أعتقد أن زوجتي «ليريس» سوف تأتي إلى مكاننا الجديد في حزن تشيكوفي وتبقى لمدة شهر أو شهرين على الأكثر، ثم تسارع بترك المكان للخدم من أجل تحقيق رغبتها في أن تكون ممثلة، لكنها على العكس مما تصورتُ، فقد غرقتْ في عمل المزرعة وراحت تُديرها بجدية جعلتني أحتفظ بها حتى الآن.

لم أكن أذهب إلى هناك إلَّا في المساء ونهايات الأسبوع؛ فقد كنت مشغولًا بعملي كشريك بأحد المكاتب السياحية الكبيرة، وكنت دائمًا أتجنب الاقتراب من الدجاج الذي تقوم «ليريس» بتربيته؛ لأن رائحته كانت تصيبني بالمرض .. كانت المزرعة جميلة. وفي صباح أيام الأحد كنت أستيقظ وأتوجه للحقل الصغير ليس فقط من أجل رؤية أشجار النخيل والبرك والحمام الطائر باتجاه الضواحي، وإنما للاستمتاع بمشاهدة بط الخزان، والبرسيم الرائع الذي يبدو كأعشاب النافذة المشذبة.

كانت «ليريس» تخرج بشعرها المنكوش ثم تمسك العصا وتقود الماشية وهي تنظر بطريقة حالمة كما تفعل الممثلات، وأثناء اللحظات التي كنا نتمتع فيها بقدر من الهدوء وإعمال العقل، كنت أخبرها بحماسها وانفعالها حتى قلت لها — ذات مرة — إنني شاهدتها وهي تعمل بطريقة مسرحية؛ فأحالت ذلك إلى غيرتي من قدرتها على الحماس، واتَّهمَتني أنني لست رفيقًا مناسبًا.

كنا ننعم بالأمان بعيدًا عن تلك التوترات الغريبة، وذلك القلق الذي يعانون منه في المدينة والذي كان يحدثنا عنه كل من يقوم بزيارتنا .. لم يكن أهالي جوهانسبرج يقصدون في حديثهم عن التوتر أولئك الناس الذين يهرولون في الشوارع ويتقاتلون من أجل المال، وإنما تلك البنادق المخبأة تحت وسادات الرجل الأبيض، وتلك الاستحكامات في النوافذ، كانوا يقصدون أيضًا عدم قدرة الرجل الأسود على الوقوف إلى جانب الرجل الأبيض فوق أرصفة المدينة.

إن الحياة خارج المدينة أفضل بكثير؛ إذ لا توجد هنا تلك الاستحكامات في النوافذ، كما أننا لا نحمل البنادق، ويعيش السود مع زوجاتهم في أرض المزرعة، ويصنعون البيرة لأنفسهم دون خوف من هجمات الشرطة؛ مما يجعلنا نفتخر حقًّا أن أولئك البؤساء المساكين لا يسببون لنا الخوف، كما أن «ليريس» ترعى أطفالهم وتعالجهم إذا مرضوا. وهكذا فإن الخوف لم يتملكْنا في تلك الليلة من الشتاء الماضي حين كنا نائمين، وسمعنا «ألبرت» وهو يطرق النافذة .. لم أكن في تلك الليلة نائمًا بجوار «ليريس»، وإنما في حجرة الملابس بسبب مضايقتها لي؛ فقد وضعت فوق جسدها بودرة التلك ذات الرائحة الجذابة بعد الانتهاء من الحمام؛ مما جعلني أذهب لأنام في حجرة الملابس؛ تجنبًا لضعفي المؤكد حيال مقاومة رغبتي .. توالت طرَقات «ألبرت» فوق النافذة، فجاءت «ليريس» وأيقظتني قائلة: يقول «ألبرت»: إن أحدهم مريض جدًّا، ومن الأفضل أن تذهب لترى بنفسك؛ فلا بد أن الأمر خطير وإلا لما أيقظنا في مثل هذا الوقت.

– كم الساعة الآن؟

أجابت «ليريس»: وماذا يهم؟

استيقظتُ مرتبكًا وهي تنظر لي، ثم شعرتُ بالحماقة كما أشعر دائمًا كلما غادرت سريرها .. كان إحساسي بالحماقة يتضاعف حين كانت تنظر لي في الصباح بطريقة غريبة أثناء تناول الإفطار، وتخبرني أنها تألمت وشعرت بالامتهان؛ لأنني لم أكن راغبًا إياها، ولأنني نمت بعيدًا عنها.

سألت «ألبرت» ونحن نمشي على ضوء البطارية الراقص: أي واحد من الأولاد؟

أجاب «ألبرت»: إنه مريض جدًّا.

تذكرت أن «فرانز» كان يعاني من سعالٍ شديدٍ طوال الأسبوع الماضي فقلت: ولكن مَن يكون؟ أهو «فرانز»؟

ظلَّ «ألبرت» صامتًا ولم يُجِب على سؤالي، وكان يفسح لي الطريق وهو يسير بجانبي فوق الأعشاب الميتة، وحين اقترب ضوء البطارية من وجهه عرفت أنه مرتبك بشدة فقلت: لِمَ كل هذا؟

انحنى برأسه بعيدًا عن الضوء، وقال: أنا لا أعرف، لكن «بطرس» هو الذي أرسلني.

هرعت معه إلى الأكواخ منفعلًا وفوق سرير «بطرس» ذي الأرجل الخشبية المحمولة بالطوب كان أحد الشباب راقدًا، لا، لقد كان ميتًا ووجهه مليئًا بالعروق وجسده دافئًا .. وقف الأولاد حوله كما يفعلون في المطبخ عندما يكسر أحدهم طبقًا، وكان الهدوء غريبًا لا يساعد على معرفة شيء، وزوجة شخص ما تتسكع في الظلال المعتمة ويداها ملفوفتان تحت مريلتها.

كنت قد رأيت رجالًا ميتين أثناء الحرب، لكن هذا مختلف، وعندما شعرت أنني دخيل ولا فائدة من وجودي سألت: ماذا حدث؟

ربتت المرأة فوق صدرها وهزَّت رأسَها مشيرة إلى صعوبة التنفس، وقالت: لا بد أنه مات من التهاب الرئة.

قلت لبطرس: مَن كان هذا الولد؟ وماذا كان يفعل هنا؟ كشف ضوء الشمعة عن بكاء «بطرس» الذي تبعني إلى الخارج، وعندما أصبحنا في الظلام انتظرت أن يتكلم لكنه لم يفعل؛ فقلت: أخبرني يا «بطرس» عن هذا الولد، هل كان صديقك؟

– إنه أخي، وقد جاء من روديسيا؛ لكي يبحث عن عمل.

أصابتني القصة بقليل من الفزع، كما تأثرَت «ليريس» بسماعها .. لقد جاء الولد الصغير من روديسيا؛ ليبحث عن عمل في جوهانسبرج فأصابه البرد من النوم في العراء

طوال الطريق، وأصبح مريضًا في كوخ أخيه «بطرس» منذ وصوله دون أن يتجرأ أحدهم ويطلب مساعدتنا؛ خوفًا من أن نعرف بوجوده.

كان الشاب قد دخل البلاد بطريقة غير شرعية؛ إذ لم يكن مسموحًا لمواطني روديسيا بدخول الاتحاد إلَّا بتصريح، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتكبدون فيها صعوبة السير على الأقدام لمسافة تعادل سبعمائة أو ثمانمائة ميل للخروج من دائرة الفقر، وتجنب هجمات الشرطة في المناطق القذرة التي يتجمع فيها السود .. كان عليه أن يبقى مختبئًا في مزرعتنا حتى يخاطر شخص ما بتوظيفه .. لقد كان واحدًا من الذين لن يستيقظوا مرة ثانية.

قالت «ليريس» في الصباح التالي: أتعتقد أنهم نادمون لعدم إخبارنا؟

وعندما شاهدَت «بطرس» في المطبخ في ذلك الوقت المبكر شعرَت بالضيق، ثم وقفَت — كعادتها حين تكون منفعلة — في وسط الحجرة كما يفعل الناس عندما يوشكون على القيام برحلة، وراحت تتفحص الأشياء المألوفة وكأنها تراها لأول مرة .. إنني أعرفها حين تمتلئ عيناها بالرعب، وتنتابها رغبة في الجدل، لكنني لم أكن أملك الوقت الكافي أو حتى الرغبة في مناقشتها؛ فقلت: أعتقد أنه أنا الذي يجب أن يقوم بكل الأعمال البغيضة!

ظلَّت تحدِّق في وجهي وأدركتُ من عينيها أنها تريدني أن أخرج؛ وعندئذٍ قلت بهدوءٍ: سوف أخبر السلطات الصحية .. إنهم لا يستطيعون نقله ودفنه، كما أننا لا نعرف سبب وفاته.

بدَت يائسة وغير راغبة في رؤيتي، فقلت بانفعال: ربما كانت أحد الأمراض المعدِية، والله وحده يعلم.

لم تقل «ليريس» شيئًا فخرجت واستدعيت أحد الأولاد؛ ليفتح الجراج ويجهز السيارة كي أتوجه للمدينة كما يحدث كل صباح.

قمت بإبلاغ الشرطة والسلطات الصحية، وهناك أجبتُ على كثيرٍ من الأسئلة المملة .. كيف كنت تجهل وجود الولد؟ كيف لا تُشرف وتُسيطر على الذين يعملون عندك؟ وكيف نعرف أن ذلك لا يحدث كثيرًا؟

انفجرت غاضبًا وقلت لهم: طالما أنهم يقومون بعملهم على أكمل وجه فإنني أعتقد أنه ليس من حقي أن أتدخل في حياتهم الخاصة.

نهضت من عند رقيب الشرطة الفَظ ذي الوجه الطافح بالغباء بعد أن كشَّر في وجهي بازدراء دون أن يستطيع إخفاء فرحته لتورطي، ثم شرحتُ لبطرس ضرورة أن تقوم

السلطات الصحية بفحص الجثة رغم أنني لم أكن أعرف ما يعنيه فحص الجثة! وعندما اتصلت بالإرادة الصحية بعد بضعة أيام لمعرفة النتيجة أخبروني أنه مات بالتهاب الرئة كما توقعنا، وأنهم سيتخلصون من الجثة بطريقةٍ ملائمةٍ.

كان «بطرس» يقوم بإعداد الهريسة للدجاج، فتوجهت إليه وأخبرته أن كل شيء على ما يرام، وأن أخاه مات بسبب ذلك الألم في صدره، فوضع العلبة فوق الأرض وقال: ومتى نستطيع الذهاب لإحضاره؟

– إحضاره!

– أرجوك أن تسألهم عن الموعد الذي نستطيع الذهاب فيه لإحضاره.

عدت للداخل ورحت أنادي على «ليريس» في أرجاء المنزل حتى أبصرتها تنزل السلالم قادمة من حجرة النوم، فقلت لها: والآن ماذا أفعل؟ لقد أخبرت «بطرس» بما حدث، لكنه سألني عن الموعد الذي يستطيع فيه الذهاب لإحضار الجثة .. إنهم يريدون أن يدفنوه بأنفسهم.

أجابتني «ليريس» قائلة: حسنًا، عُد إليه وأخبره، لا بد أن تخبره .. كان يجب أن تقول له في حينها.

قلت لبطرس وهو يتطلع نحوي بأدب: اسمعني يا «بطرس»، أنت لن تستطيع الذهاب لإحضار أخيك؛ لأنهم قاموا بعمل كل شيء، لقد دفنوه .. هل تفهم؟

أجاب ببطءٍ وفتورٍ: أين؟

– أنت تعرف أنه كان غريبًا وهم يعرفون ذلك أيضًا، كما لا يعرفون أن له أقرباء هنا؛ وهكذا دفنوه.

– أرجوك يجب أن تسألهم.

لم يكن «بطرس» يعني معرفة مكان الدفن، وإنما كان يريد عودة أخيه؛ لأنه ببساطة يجهل ذلك النظام الغريب الذي شرحتُه له؛ وعندئذٍ قلت له: ولكن كيف يا «بطرس» وقد دفنوه بالفعل، أنا لا أستطيع أن أسألهم الآن!

كانت يداه ملطختين بالنخالة؛ فوقف وقال بفم مرتعش: أوه!

– لن يستمعوا لي يا «بطرس» .. إنهم لا يستطيعون بأية طريقة، وأنا أيضًا لا أستطيع .. إنني آسف، هل فهمت؟

ظلَّ ينظر إلى وجهي، ولم يكن مدركًا أن الرجال البِيض يملكون كل شيء، ويستطيعون فعل أي شيء، وإذا لم يفعلوا؛ فلأنهم فقط لا يريدون.

قالت «ليريس» أثناء تناول الطعام: كان بمقدورك على الأقل أن تتصل بالتليفون.

– يا للمسيح! مَنْ أكون في اعتقادك؟ أيجب أن أعيد الحياة إلى الميت؟

انتهت من تناول القهوة، ثم اختفت في المطبخ، وعادت بعد قليل، وقالت: سوف يحصل الأب الكبير على تصريح، ويأتي من روديسيا لحضور الجنازة، وأعتقد أنه الآن في الطريق.

وافقت السلطات على خروج الجثة من القبر، فقال «بطرس» بصوت هادئ وكأنه يتحدث عن شيء مستحيل، ولا يحتمل التفكير فيه: يجب أن ندفع عشرين جنيهًا للحانوتي.

قلت له: وهو كذلك يا «بطرس».

ثم عدت إلى حجرة المعيشة.

في الصباح التالي، وقبل ذهابي للمدينة طلب «بطرس» مقابلتي وقال بارتباك: أرجوك، ها هي العشرون جنيهًا.

إنهم حقًّا بؤساء ومساكين، ولا يعرفون كيف يقدمون النقود إلى الرجل الأبيض .. كانت العشرون جنيهًا تتكون من جنيهات وأنصاف جنيهات بعضها متجعد وقذر وبعضها الآخر جديد وناعم، كان قد جمعها من «فرانز» و«ألبرت» و«دورا» الطاهية و«يعقوب» البستاني وكثيرين غيرهم ممن يعملون في المزرعة والأرض الصغيرة حولنا.

لم تصبني الدهشة كثيرًا، لكنني غضبت بشدة وتعجبت لتلك التضحية العقيمة التي لا فائدة منها من قِبَل أولئك الفقراء، والتي لم يكن بمقدورنا نحن أن نفهمها؛ حيث إن أمثالي وأمثال «ليريس» يرون أن الحياة شيء يجب أن نعيشه ببذخٍ، وإذا ما فكرنا في الموت فإننا ننظر إليه كأنه الإفلاس الأخير.

لم يكن الخدم يعملون بعد ظهر يوم السبت؛ فكان ذلك مناسبًا للجنازة .. استأذن «بطرس» ووالده لاستعارة عربتنا الكارو من أجل إحضار التابوت من المدينة، وقال «بطرس» مخاطبًا «ليريس»: كل شيء سيكون على ما يرام عندما نعود.

أحكَموا إغلاق التابوت خوفًا من رؤية ما يُثير أحزانهم، وظلَّ التابوت في كوخ «بطرس» طوال الصباح في انتظار نقله إلى المقبرة خارج حدود مزرعتنا الشرقية.

نسيت «ليريس» وعْدَها بنظافة المنزل بعد ظهر يوم السبت، وكانت ما تزال منكوشة الشعر، كما أنها لم تَقم بتنظيف أرضية الحجرة الملطخة بالورنيش؛ فلم أستطع البقاء، ثم تناولتُ مضرب الجولف وسارعتُ بالخروج .. كنت واقفًا بمحاذاة السور عندما مرَّ الموكب، وكانت الشمس ساطعة كأنها قطع صغيرة من الخزف؛ فاستطعت أن أرى المقابر بوضوح لكنني ارتبكت قليلًا، وشعرت بضرورة إخفاء كرة الجولف حتى ينتهي مرور الموكب الموقَّر

من أمامي .. أبصرت الحمارين وهما يقودان عربة الكارو ورءوسهما غارقة بين عريش العربة، وأُذنا كليهما منبسطة للخلف، وقد بدَا أنهما خاضعان ذليلان مما ذكَّرَني بمجموعة الرجال والنساء الذين يسيرون خلفهما ببطء.

توقف الموكب بالقرب مني فسارعت بإخفاء مضربي .. كان التابوت مصنوعًا من الخشب المدهون بالورنيش الأصفر مثل الأثاث الرخيص؛ فبدا متلألئًا، وكان الحماران يهزان أذنيهما حين كانوا ينتشلون التابوت من فوق العربة الكارو، حيث رفعه «بطرس» و«فرانز» و«ألبرت» والأب العجوز فوق أكتافهم، وبدأ الموكب يتحرك على الأقدام .. وقفت عند السور هادئًا ومندهشًا، وعرفت أنهم جميعًا من الخدم العاملين عندنا أو من خدم الجيران الذين أعرفهم، وأقابلهم مصادفة، وأسمعهم أحيانًا وهم يثرثرون بهدوء عن أرضنا، أو مطبخنا .. كان الرجال الأربعة ينحنون تحت الصندوق الخشبي المتلألئ دون أن يرفعوا أبصارهم، ومن بعيد استطعت أن أسمع أنفاس الرجل العجوز الذي راح يتمتم بشيء ما؛ فتوقف الناس وأصابهم الارتباك حتى إن الولد الصغير الذي بقى لمراقبة الحمارين عاد مسرعًا لرؤية ما يحدث .. رفع «بطرس» بصره نحوي، ثم نظر إلى الجميع بفزع، وكان العجوز القادم من روديسيا قد تخلَّى تمامًا عن التابوت؛ فلم يَعُد بمقدور الثلاثة الآخرين حمله فوضعوه على الأرض في عرض الطريق .. كان التراب يغطي جوانب التابوت ولم أستطع أن أفهم ما يقوله الرجل العجوز الذي بسط يديه المفتوحتين والمرتعشتين نحوي.

توسَّلتُ إلى «بطرس» قائلًا: ماذا يا «بطرس»؟ ماذا يقول؟

ساد الهدوء لحظة؛ فاستطعت أن أسمع أنفاس الرجل العجوز مرة أخرى، وكان فمه مفتوحًا كما يفعل كبار السن، وذا شارب أشيب مهذب، وأسنان قليلة مائلة للاصفرار .. راح يحرك غطاء التابوت بمساعدة ثلاثة من الرجال ثم ارتمى على الأرض خائر القوى، ورفع يده المرتعشة بصعوبة في اتجاه التابوت من الداخل، وقد فقد القدرة على الكلام، لكنه تحدَّث أخيرًا بالإنجليزية وقال بصعوبةٍ شديدةٍ: إن ابني صغير ونحيل.

تجمعوا حوله وكذلك فعلت أنا لإلقاء نظرة على ما بداخل التابوت؛ فغرق الجميع في دهشة غريبة وراحوا يلهثون ويتحدَّثون بغضب، بينما ظلَّ الولد الصغير يبكي؛ لأن الكبار كانوا يقفون أمامه ويمنعونه من الرؤية.

كان الراقد في التابوت شخصًا آخر لم يتعرف عليه أحد؛ فهو بدين وذو بشرة مضيئة، كما تعلو جبهته ندبة ما ربما كانت من أثر ضربة في شجار.

ظللت طوال أسبوع في مشاحنات مع السلطات بسبب تلك الجثة، وأخيرًا قالوا لي: نحن ما نزال نقوم بتحرياتنا.

ثم ذهبوا معي إلى مكان الجثث، وقالوا: ارفع الملاءة وانظر إليه إذا كنت تعرفه .. يوجد هنا الكثير من الوجوه السوداء فهل تعتقد أننا نستطيع أن نتعرف عليه؟

كل مساء كان «بطرس» ينتظرني في المطبخ عند عودتي فأقول له: إنهم يحاولون وما زالوا يبحثون.

لكن «بطرس» و«ليريس» كانا يحدِّقان في وجهي وأنا أتكلم بطريقة غريبة؛ فبدا أنهما شبيهان تمامًا رغم استحالة ذلك، فزوجتي بيضاء وذات جسد إنجليزي رقيق، أما الولد بائع الدجاج فإن قدميه عاريتان، وبنطلونه الكاكي مربوط عند ركبتيه بحبل، كما تنبعث من جسده رائحة عرق شاذة.

قالت «ليريس» فجأة: لماذا أنت ساخط إلى هذا الحد؟

حدَّقتُ فيها وأجبتُ: إنها مسألة مبدأ .. لماذا يجب أن يكونوا مظلومين؟

شعر «بطرس» أن المناقشة أخذت شكلًا ليس له بها شأن؛ ففتح باب المطبخ بهدوء وخرج، ثم تبعته «ليريس» وهي تقول: أوه!

كنت أكرر عهدي لبطرس كل مساء، وأقول له الكلام نفسه، نغمة الصوت نفسها، لكنه بدا أخيرًا أكثر ضعفًا وفقَد الأمل في الوفاء بعهدي .. لقد كان واضحًا أن أخاه لن يعود أبدًا فلا أحد يعرف مكانه الحقيقي سوى الله والسلطات، بالإضافة إلى أنه كان بلا هوية في هذا العالم.

سألني «بطرس» بصوت مليء بالخجل أن أحاول رد النقود، فحاولت أنا و«ليريس» كثيرًا دون جدوى .. كانت العشرون جنيهًا للحانوتي الذي قام فعلًا بمهمته، فأصبحَتْ كل المحاولات من أجل أولئك البؤساء المساكين ليست سوى مضيعة للوقت.

كان الرجل العجوز القادم من روديسيا في حجم والد «ليريس» تقريبًا، فبادرتْ بإهدائه إحدى بِدَل أبيها القديمة؛ وهكذا عاد العجوز إلى موطنه في حال أفضل مما كان عليه، خاصة وأن الشتاء كان على الأبواب.

لقاء في الظلام

جيمس نجوجي
كينيا

«نجوجي واثيونجو» هو الاسم الأفريقي الذي اختاره «جيمس نجوجي» لنفسه .. ولد في كينيا بشرق أفريقيا عام ١٩٣٨م وأتم تعليمه بجامعة ماكيريري بأوغندا وهو كاتب معروف عالميًّا بإبداعاته في مجال الرواية والمسرح والقصة القصيرة .. من أشهر أعماله الروائية: Weep not child، وThe river between، وA Grain of wheat، وPetals of blood، ثم آخر رواياته Devil on the cross .. أهم أعماله المسرحية The black hermit، كما اشتهر بمجموعته القصصية Secret lives، بالإضافة إلى كتاباته الكثيرة في مجال النقد الأدبي.

كانت فتاة صغيرة تعيش مع والديها في منزل وحيد خلف التل .. منزل قديم لكنه ذو أساس قوي لا يتأثر بسقوط الأمطار أو هبوب الرياح، وكان والدها يحبها وكذا أمها، وعندما كانا يتشاجران أحيانًا تبكي الفتاة الصغيرة، لكنها كانت سعيدة على أية حال .. لم يكن يزورهم أي إنسان فلم يتعرفوا على أحد، وذات يوم قَدم إليهم شخص غريب، طويل ووسيم، ذو أسنان بيضاء كاللبن، فقدمت الأم له طعامًا، ثم حكى لهم عن بلدٍ جميلٍ يقع خلف التل .. تمنت الفتاة أن تذهب إلى ذلك البلد الجميل، وراحت تتعقب الرجل في الخفاء، وما إن قطعَا مسافة صغيرة حتى تحول الغريب إلى «إيريمو» وأصبح دميمًا وله فم آخر في ظهره المختبئ تحت شعره الطويل المتطاير مع هبوب الرياح .. كان الذباب متجمعًا

فوق فمه المغلق فسارعت الفتاة بالعودة، لكن «إيريمو» المخيف ظل يتعقبهما وهي تجري بسرعة دون أن يستطيع اللحاق بها، غير أنه كان دائمًا قريبًا منها، وعند اقترابها من منزلها عرفت أن «إيريمو» قد توقف عن تعقبها، لكن المنزل لم يَعُد موجودًا، فأصبحت بلا مأوى ولم تستطع أن تتقدم للأمام باتجاه الأرض الجميلة لرؤية الأشياء الطيبة .. كان «إيريمو» في الطريق.

هكذا تعودت أمه أن تحكي له القصص، لكن «جون» ظل يتساءل بينه وبين نفسه: كيف كانت نهاية تلك الحكاية؟ ليتني أعود صغيرًا في منزلنا القديم لأسأل أمي عن نهاية تلك الحكاية.

لم يَعُد «جون» صغيرًا بأية حال، لكنه لم يصبح رجلًا بعد، وحين وقف أمام باب الكوخ شاهد والده العجوز الضعيف قادمًا عبر شارع القرية، ورغم شيخوخة والده وضعفه إلا أنه كان نشيطًا يحمل حقيبة قماشية قذرة كانت تتأرجح بين جانبيه .. تلك الحقيبة التي يحملها دائمًا ويعرف «جون» محتوياتها .. الكتاب المقدس، وكتاب التراتيل، واحتمال وجود كراسة وقلم .. كان الأب واعظًا ومبشِّرًا، وربما هو الآن الذي جعل أمه تتوقف عن سرد الحكايات له منذ زمن بعيد حين قالت له: والآن لا تسألني عن مزيد من الحكايات فقد يأتي والدك.

بدأ منذ ذلك الحين يخاف من أبيه.

دخل «جون» وأشار إلى أمه بقدوم أبيه، وعندما دخل الأب انتصب «جون» واقفًا ومضى نحو الباب متباطئًا وهو غارق في شكوكه، ثم سارع بالخروج.

– «جون» .. هاي، «جون» .. تعال.

وقف مذعورًا أمام أبيه ودقات قلبه لا تتوقف عن الخفقان، وثمة صوت مرتعش بداخله كان يتساءل: هل يعرف؟

– اجلس .. إلى أين أنت ذاهب؟

أجاب مرواغًا: للنزهة يا أبي.

– في القرية؟

– لا بأس .. نعم .. لا .. أعني ليس إلى مكان محدد.

لاحَظ «جون» نظرات أبيه القاسية ولم تعجبه تلك النظرات، ثم خُيِّل له أنه يعرف فتنهد ببطء .. هكذا ينظر إليه دائمًا وكأن «جون» مذنب، أو أنه يجب أن يكون مراقبًا طول الوقت.

حدثته نفسه: أنا ذلك المذنب الذي يجب مراقبته.

لكنه لم يشأ — وهو يشعر بالذنب — أن يبادل تحديق الرجل العجوز بنظرات مشابهة؛ فلجأ إلى أمه التي كانت تقشر البطاطس في هدوء ولا تدري شيئًا عما يحدث حولها.

– لماذا تنظر إلى بعيد؟ .. ماذا فعلت؟

انكمش «جون» داخل نفسه من شدة الفزع، غير أن ملامح وجهه ظلت لا تُوحي بشيء، وكان من اليسير سماع ضربات قلبه التي كانت تشبه ضربات مضخة المياه.

شعر أن والده قد عرف كل شيء فقال لنفسه: لماذا يعذبني؟ ولماذا لا يقول في الحال إنه يعرف؟

ثم سمع صوتًا آخر يقول: لا .. إنه لا يعرف وإلا لما تباطأ في الانقضاض عليك.

كان عزاؤه الوحيد هو شجاعته في الصمود أمام أبيه الذي يطيل التفكير.

– متى ستكون الرحلة؟

فكَّر «جون» مرة أخرى: لماذا يسأل وقد أخبرته مرات عديدة.

ثم قال بصوت مرتفع: الأسبوع القادم .. يوم الثلاثاء.

– رائع .. غدًا سنذهب إلى السوق .. أتسمعني؟

– نعم .. بابا.

– فلتكن مستعدًّا إذن.

– نعم سأكون.

– والآن يمكنك الذهاب.

– شكرًا يا أبي.

وحين بدأ يتحرك قال الأب مناديًا: «جون».

– نعم.

أجاب بنعم، لكن قلبه بدا متوقفًا؛ فقد كانت الثانية الأخيرة قبل أن ينطق والده بآخر كلماته تعادل عمرًا بأكمله.

– تبدو في عجلة من أمرك .. لا تتأخر في القرية فأنت كبقية الصبية الذين يسعون للفت الأنظار .. لا أريد أن أسمع عن مشاكل في القرية.

خرج «جون» وهو يلتقط أنفاسه واستطاع أن يخمن ما يعنيه والده بمشاكل القرية.

كيف انتهت الحكاية؟ .. ضحك ولم يستطع أن يتذكر نهاية الحكاية التي روتها له أمه منذ زمنٍ بعيدٍ، لم تجد منزلها فأين ذهبت إذن؟ وماذا فعلت؟

كانت «سوزان» تنصت باهتمام لما يدور بينهما من حديث دون أن تتدخل، لكن ها هو دورها في الكلام قد جاء، فقالت وهي تتحدث للمرة الأولى: لماذا تعذب الولد إلى هذا الحد؟ ثم نظرت إلى رفيق حياتها، ذلك العجوز المُبشِّر القاسي الذي تزوجته منذ سنوات عديدة لا تستطيع إحصاءها .. لقد كانا سعيدين حتى تغير الرجل فجأة فأصبح متدينًا وتلوَّنت كل الأشياء في البيت بصبغة دينية إلى أن جاء اليوم الذي أصدر فيه أمرًا بأن تتوقف زوجته عن سرد الحكايات للطفل قائلًا: أخبريه عن يسوع .. مات يسوع من أجلك .. مات يسوع من أجل الطفل .. يجب أن يعرف الرب.

تغيَّرت «سوزان» أيضًا وصارت متديِّنة، لكنها لم تستطع أن تتجاهل تعذيب الطفل الذي كان يكبر ويكبر والخوف من أبيه يلازمه حتى إنها تساءلت كثيرًا بينها وبين نفسها عن مدى حبه للابن .. هل يحبه أو هو الغيظ؟ إنَّ كليهما مذنِب قبل الزواج و«جون» ليس إلا نتيجة لذلك الذنب، فلماذا يشكو من «جون»؟

سألتْ نفسها مرارًا: هل الولد ...؟ لا .. لا أعتقد، فقد كان الولد صغيرًا جدًّا عندما غادرت «فورت هول».

نظرت إلى زوجها وظلت صامتة، لكن يدها اليسرى كانت تتحسس وجهها بقلق وقالت لزوجها: وكأنه ليس ابنك .. أو هل ...؟

– هاآآآم يا أختاه!

كانت نبرات صوتها تحمل معنى الدفاع وتُوحي ببداية الشِّجار غير أنه لم يكن مستعدًّا؛ فقال لنفسه: إن النساء حقًّا لا يفهمن .. إن النساء دائمًا هنَّ النساء سواء كن طاهرات أم لا، ولكن يجب علينا حماية الابن من كل مؤثِّرات الشر، ولا بد له أن ينشأ نشأةً دينيةً تحت رعاية الرب.

نظر إليها متجهمًا بعض الشيء وقد تذكَّر أنها هي التي أوقعته في الخطيئة، لكن ذلك حدث منذ وقت طويل وغفر الله له، أما «جون» فلا يجب أن يسلك الطريق نفسها.

– يجدر بنا أن نرحل لأنني — كما تعلم — أستطيع الذهاب بعيدًا كالعودة مثلًا إلى «فورت هول»؛ وعندئذٍ فإن كل شخص ...

– أختاه! .. هكذا كان يناديها دائمًا فهي أخت في الدين على أية حال، وكان يتساءل أحيانًا: هل حقًّا قد غفر الله لها؟ ثم يدعو في صلواته قائلًا: إلهي .. قف بجانب أختي «سوزان».

أجابها بصوتٍ عالٍ: تعرفين أنني أريده أن يكبر في جو تسوده تعاليم الرب.

– لكنك تعذبه كثيرًا، وهو يخاف منك كثيرًا.
– لماذا؟ لا يجب أن يخاف مني فأنا لا أفعل ما يخيفه.
– أنت تقسو عليه دائمًا.

ثم نهضت من مكانها فتساقط قشر البطاطس من فوق جلبابها على الأرض وقالت بحدة وغضب: «ستانلي».

ارتعد من صوتها الغاضب وأجاب: أختاه.

ولأنه لم يألفها هكذا من قبل؛ فقد أضاف بينه وبين نفسه: يا إلهي .. أبعدها عن الشر .. احفظها هذه اللحظة.

لكنها لم تقل ما كانت تريد؛ فتوجَّه «ستانلي» ببصره بعيدًا عنها، وقال لنفسه: إنها مفاجأة حقًّا أن أخاف من زوجتي، وإذا أخبرت الناس في القرية عن ذلك الخوف فلن يصدقوني.

تناول كتابه المقدس وظل يقرأ؛ حيث سيقوم بوعظ المصلين من الأخوة والأخوات يوم الأحد.

كانت «سوزان» امرأة طويلة ورقيقة، وذات يوم كانت فاتنة وجميلة .. عادت للجلوس مرة أخرى وواصلت عملها، ولم تكن تعرف السر وراء متاعب ابنها.. هل هي الرحلة القادمة؟

كان «جون» يتجول في الخارج بلا هدف وعبر الطريق المؤدية إلى منزله وقف بجوار شجرة اللبلاب القريبة؛ حيث يمكن رؤية القرية بأكملها فصارت ممتدة أمام ناظره .. صفوف وصفوف من الأكواخ الطينية والأكواخ المصنوعة من القش التي تنتهي بعصا حادة تُشير إلى السماء .. كان الدخان يتسرب من مختلف الأكواخ؛ مما يعني عودة كثير من النساء، ومن جهة الغرب كانت الشمس تسارع بالمغيب خلف التلال المليئة بالضباب والغموض.

أبصر «جون» قرية «ماكينو» ذات الأكواخ المحتشدة في صفوف والتي ترعرع فيها عش الغراب أثناء حرب الماو ماو، فبدت له غاية في القبح والبشاعة؛ وعندئذٍ شعر بألمٍ شديدٍ، وقال صارخًا: إنني أكرهك .. إنني أكرهك .. لقد أوقعت بي في مصيدة الحياة حيث لم يكن ممكنًا حدوث ذلك بعيدًا عنك أو بدونك.

امرأة ما كانت قادمة باتجاهه قريبًا من الطريق المؤدية للقرية .. كانت المرأة تحمل لفة كبيرة من «الكوني»؛ فانحنت بظهرها وقدمت له التحية ثم قالت: هل أنت بخير؟ وهل كل شيء على ما يرام؟

– نعم .. كل شيء على ما يرام يا ماما.

لم يكن ثمة أثر للمرارة في صوته، فهو بطبيعته مهذب كما يعرفه الجميع وليس كأولئك الأبناء المتعلمين المغرورين في القبيلة .. أولئك الذين جاءوا من البلاد البعيدة مع البِيض أو زوجات الزنوج ويتحدثون الإنجليزية ويتصرفون كالأوربيين تمامًا .. كان «جون» محبوبًا ومثالًا للوداعة والكمال الخلقي، وكانوا جميعًا يعرفون ذلك بالرغم من أنه ابن القس، وباختصار كان «جون» عند حسن ظن القبيلة.

– متى ستذهب إلى ... إلى ...

– ماكيريري؟

– ماكيليلي.

ضحكَتْ بطريقة غريبة كالطريقة التي نطقت بها الاسم، وكانت سعيدة بذلك، لكن «جون» شعر بالأذى.

– الأسبوع القادم.

– أتمنى لك وقتًا طيبًا.

– شكرًا يا أماه.

وبهدوء حاولت أن تنطق الكلمة بشكل أفضل فقالت: ماكيليلي.

ثم ضحكت على نفسها مرة ثانية، ولما كان ما تحمله ثقيلًا عليها فقد شعرت بالتعب، وقالت: أتمنى لك التوفيق يا ولدي.

– سأكون موفقًا وسأنعم بالسلام يا أمي.

تحرَّكت المرأة بعد أن ظلت واقفة طوال الوقت وهي تلهث كالحمار، غير أنها لم تستطع أن تُخفِي سرورها من طيبة «جون».

ظل «جون» ينظر إليها كثيرًا وهو يتساءل: ما الذي يجعل مثل هذه المرأة تعيش يومًا بعد يوم وهي تعمل هكذا بشقاء؟ هل هي سعيدة؟ هل تملك الإيمان الكافي بهذه الحياة أو أنها تؤمن بالقبيلة؟ إنها طيبة لم تتلوث بحياة الرجل الأبيض الذي لم يجد فيها شيئًا يتمسك به.

وبينما كان يتعقبها شعر بالفخر؛ لأن الرجل الأبيض سيجد فيه ما يتمسك به، ولأن له مكانًا في تفكير البِيض، لكنه سرعان ما شعر بالاستياء .. إن أباه سيعرف .. إنهم سيعرفون وهو لا يعرف ما يخفيه، أو ما سيفعله والده حين يعرف، وما مدى الخسارة التي ستلحق به عندما يفقد الفلاحون البسطاء ثقتهم وحبهم له!

عرج إلى مقهًى محلِّي صغير فقابل كثيرًا من الناس الذين تمنَّوْا له التفوق في الكلية؛ فقد عرفوا جميعًا من الجريدة الأسبوعية أن ابن القس قد انتهى من مرحلة تعليم الرجل الأبيض في كينيا، وأنه في طريقه للذهاب إلى أوغندا.

لم يمكث «جون» كثيرًا في المقهى؛ فقد غابت الشمس، وحل الظلام وموعد العشاء .. كان والده القاسي ما زال على المائدة يتلو في كتابه المقدس، وعند دخول «جون» لم يرفع بصره من فوق الكتاب، وساد هدوء غريب في الكوخ.

سارعت أمه بكسر الصمت قائلة: تبدو حزينًا!

ضحك «جون» ضحكةً صغيرةً لكنها مغلَّفة بالتوتر، ثم أجاب بسرعة: لا يا أمي.

نظر إلى والده نظرات غريبة، وتمنى بينه وبين نفسه لو لم تكشف «واموهو» عن السر، ثم أضاف مخاطبًا أمه: إنني مسرور.

كانت أمه تعرف أنه ليس كذلك .. تناول طعامه وخرج من الكوخ .. كان لكل الشباب أكواخ خاصة، لكن «جون» لم يكن مسموحًا له بإحضار أية فتاة زائرة، وتجنبًا للمتاعب فإنه لم يحاول؛ فقد كان مجرد رؤيته واقفًا مع إحداهنَّ تُعدُّ جريمة يعاقبه عليها والده بالضرب .. تمنى لو استطاع أن يتمرَّدَ في وقت مبكِّر مثل كل المتعلمين الآخرِين .. أضاء الفانوس، ثم أمسك به، لكن الضوء الأصفر كان يرتعش بقوة ثم ينطفئ؛ وعندئذٍ أدرك أن يديه كانتا ترتعشان .. أضاء الفانوس مرة ثانية وتناول كوفيته الكبيرة المبطنة، فشاهده والده؛ وحينئذٍ قضم «جون» شفته السُّفلى وشعر بكراهية تجاه نفسه؛ لكونه خائفًا كالفتيات؛ فليس ذلك بالأمر الطبيعي بالنسبة لولد في مثل سِنِّه .. راح يتلصص عابرًا الفناء نحو الشارع المؤدي للقرية، فكان الشارع مليئًا بالشباب والشابات الذين يضحكون، ويتحدثون، ويتهامسون، ويستمتعون بوقت طيب.

قال «جون» لنفسه: إنهم أكثر حرية مني!

وبينه وبين نفسه كان يحسدهم لأنهم كانوا ملتزمين بالقواعد الأخلاقية التي يفرضها عليهم وضعهم كمتعلمين حتى إنه سأل نفسه: هل أختلط بهم؟

وصل أخيرًا إلى الكوخ الواقع في قلب القرية ولم يكن يعرف ماذا يفعل .. سوف ينتظرها في الخارج، ولكن ماذا لو أن أمها هي التي خرجت؟ فليدخل إذن.

– «هودي».

– ادخل نحن بالداخل.

قبل أن يدخل شد قبعته إلى أسفل وفعلًا كان الجميع بالداخل ما عدا تلك التي جاء من أجلها، وكانت النار في الموقد مطفأة، ولا يضيء الكوخ بأكمله سوى شعلة صغيرة

في الفانوس كانت تعكس ظلالًا ضخمة فوق الحائط بَدَت وكأنها تسخر منه .. تمنى ألا يستطيع والد «واموهو» ووالدتها أن يتعرَّفا عليه، ثم حاول أن يكون رقيقًا وهو يتقدم بالتحية فغيَّر من نبرات صوته .. تعرَّفوا عليه بسهولة غير أنهم تظاهروا بالانشغال بالترحيب به؛ إذ ليس بالحدث المتكرر أن تكون مضيفًا لشخص متعلم يعرف كل شيء عن عالم الرجل الأبيض، وقد يذهب في يوم ما إلى أرض أخرى فيما وراء هذه البلاد .. لا ينبغي الاستهانة بمثل هذا الحدث فمن يعرف، ربما يهتم بابنتهم؟ فقد حدثت أشياء كثيرة، لكن التعليم ليس هو كل شيء .. إن «واموهو» ليست متعلمة لكنها تستطيع بجاذبيتها أن تأسر قلب أي رجل؛ إذ يكفي نظراتها وابتسامتها.

– اجلس .. إليك بهذا المقعد.

انتابه شعور بالمرارة وقال: لا .. أين «واموهو»؟

شعرت الأم بالانتصار فراحت تنظر إلى زوجها الذي بادلها النظرات نفسها غير المعتادة؛ فقضم «جون» شفتيه مرة أخرى، وانتابه إحساس بالصاعقة، لكنه استطاع أن يتمالك نفسه بصعوبة.

– خرجَتْ لتوِّها كي تأتي ببعض أوراق الشاي .. اجلس من فضلك، فسوف تصنع لك الشاي عندما تأتي.

تمتم ببعض الكلمات الغامضة، وقال لنفسه: إنني خائف.

ثم مضى إلى الخارج وهو يفكر بأنه كثيرًا ما كان متصادمًا مع «واموهو».

وفي الكوخ قالت أم «واموهو» لزوجها: ألم أخبرك؟ لا بد أن تثق بنظرات المرأة.

– أنت لا تعرفين أولئك الشباب.

– لكنك ترى أن «جون» مختلف، وكل الناس يذكرونه بالخير، بالإضافة إلى أنه ابن القس.

– أوه .. نعم، ابن القس، لقد نسيت أن ابنتك قامت بعملية الختان.

ثم تذكر الرجل العجوز يوم أن كان يبحث عن امرأة يتزوجها، امرأة عفيفة طيبة تمارس سلوكيات القبيلة، وتتمسك بمبادئها، ولا تعرف أي رجل آخر .. كانا سعيدين مثل كثير من الناس في «ريكا»؛ حيث كل الفتيات عذراوات، وحيث كان محرَّمًا لَمْس الفتاة مثلما يفعل كثير من الشباب هذه الأيام.

أضاف قائلًا لزوجته: لقد تبِع كل الرجال ما جاء به الرجل الأبيض من دينٍ غريبٍ وأساليب غريبة .. لقد تحطم قانون القبيلة، ولم يستطع الإيمان أن يُبقي القبيلة على

تماسكها .. كيف نستطيع إذن؟ إن من يتبع الأساليب الجديدة للرجل الأبيض لن يسمح بختان الفتيات، ولن يسمح لابنه بالزواج من فتاة قامت بتلك العملية .. أوه .. انظري إلى ما يحدث .. لقد ذهب أبناؤهم بعيدًا إلى بلاد الرجل الأبيض فماذا أحضروا من هناك؟ .. نساء شقراوات ونساء سود يتحدثن الإنجليزية، آه، شيء بشع!

أجابت زوجته: ماذا تقول؟ أليست «واموهو» أطيب وأحسن منهنَّ؟ وعلى أية حال فإن «جون» مختلف.

– مختلف، مختلف .. أوه! إنهم جميعًا متشابهون فالطينة البيضاء تغطيهم، وتسيطر عليهم أساليب الرجل الأبيض السيئة .. إنهم فارغون من الداخل، لا شيء .. لا شيء.

تناول قطعة من الخشب ووخز بها النار المطفأة بعصبية، ثم شعر بالخدر يسري في جسده؛ فارتعش وانتابه الخوف، الخوف على القبيلة، فقال: ليت المتعلِّمين فقط هم من تسيطر عليهم وتستهويهم حياة الرجل الأبيض، لكنها كل القبيلة .. إن القبيلة تتبع الإيريمو الزائف مثل الفتاة في الحكاية.

ارتعش الرجل العجوز وصرخ .. كان حزينًا على القبيلة التي أصابها التفكك، وأصبح من العسير أن تعود كما كانت .. توقف عن وخْز النار بقطعة الخشب، وراح ينظر إلى الأرض نظرات قوية، ثم قال: إنني أتعجب من مجيئه .. حقًّا إنني أتعجب، وأتساءل عن السبب في مجيئه.

وما لبث أن نظر إلى زوجته وهو يستطرد: هل تتصرف ابنتك تصرفات غريبة؟

لم تجب زوجته بشيء؛ فقد كانت مشغولة بالتفكير في آمالها العريضة.

كان «جون» و«واموهو» يلعبان دورهما في صمت ويعرفان كل الطرق والمنحنيات الصعبة والغامضة، وكانت «واموهو» تسير بخطًى سريعة معروفة، بينما «جون» الذي يعرف أنها سعيدة كانت خطواته ثقيلة، وكثيرًا ما كان يتجنب الناس حتى في الظلام .. ولكن لماذا يشعر بالخجل ويخاف أن يشاهده الناس معها؟

إن الفتاة جميلة، بل إنها أجمل فتاة في «ليمورو»، لكن كل شيء كان خطأً .. هو يعرف أنه يحبها كثيرًا، لكن الشك ساوره ذات يوم في ذلك الحب فأصبح من العسير التأكد من معرفته تلك، ولو أنه واحد من أولئك الشباب الذين قابلهم لما أصبح ذلك عسيرًا.

وقفَا خارج القرية دون أن يتبادلَا الحديث بكلمةٍ واحدةٍ فبدَا رنين الصمت أكثر صخبًا من الكلمات .. كان كلاهما يحس بالآخر.

– هل يعرفون؟

توقعت «واموهو» هذا السؤال ولم تُجِب مباشرة، وإنما ساد الصمت بضع لحظات كاد «جون» خلالها أن يفقد صبره؛ فسارع بالتضرع إليها وهو يقول: قولي شيئًا من فضلك .. لا تتركيني أنتظر هكذا.

شعر بتعبٍ شديدٍ وكأنه رجل عجوز وصل لتوه إلى نهاية الرحلة حين أجابت بهدوء: لا .. لقد أخبرتَني أن أمهلك أسبوعًا آخر، وها هو الأسبوع ينتهي اليوم.

همس «جون» بصوت أجش: نعم، ولهذا جئت اليوم.

لم تقل «واموهو» شيئًا، بينما ظل «جون» يُحدِّق فيها، لكنه لم يستطع رؤيتها بوضوح بفعل الظلام، ولاحت أمامه صورة أبيه المتدين المتعجرف المتسلط؛ ففكر مرة أخرى: أنا «جون» ابن القس .. إن الجميع يحترمونني، وها قد أوشكت على الذهاب إلى الكلية .. سوف أسقط، سوف أسقط على الأرض.

ولم يشأ أن يفكر أو يتأمل ذلك السقوط، وإنما قال متهمًا إياها: كانت غلطتك!

بينما كانت دقات قلبه تُشير له أنه يكذب.

– لماذا تصر على توبيخي وإيلامي؟ ألا تريد أن تتزوجني؟

تنهد «جون» وليته كان يعرف ماذا يفعل.

«في سالف الزمان كانت ثمة فتاة جميلة لا تملك منزلًا تأوي إليه، ولم تستطع أن تمضي نحو الأرض الجميلة لترى كل الأشياء الطيبة والحسنة؛ لأن الإيريمو كان في الطريق.»

– متى ستخبرهم؟

– الليلة.

تملكه يأسٌ جارف وفكَّر قائلًا لنفسه: يجب أن أذهب للكلية في الأسبوع القادم، فهل أستطيع إغراءها بالانتظار حتى أعود فتكون العاصفة قد هدأت والخوف قد تلاشى؟ وماذا لو تراجعت الحكومة عن المنحة؟

أصبح خائفًا وانتابته رغبة حزينة في استئناف الحديث فاتجه ناحيتها وقال بصوت خفيض ومتردد: انظري «واموهو» .. كم من الوقت؟ أقصد متى؟ أعنِي ...

– قلت لك مِرارًا إنني سأكون هكذا ثلاثة أشهر وبعدها ستثور الشكوك من حولي .. لقد قالت أمي بالأمس: إنني أتنفس مثل المرأة الحامل.

– أتعتقدين أن بإمكانك الانتظار ثلاثة أسابيع أخرى؟

ضحكت وقالت لنفسها: ها هو الساحر الصغير يقوم بخداعي.

كانت ضحكاتها تُثير فيه دائمًا التأثر والانفعال فقال: إذن .. امنحيني فرصة حتى الغد فقط؛ فسوف أفكر في شيء ما، غدًا ستعرفين كل شيء.

– موافقة .. غدًا فقط ولن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك إلَّا إذا قررت أن تتزوجني.

سأل نفسه: لماذا لا تتزوجها، إنها فاتنة وجميلة، لماذا لا تتزوجها؟ هل أحبها أو لا؟

مضت «واموهو» تاركة إياه؛ فشعر «جون» أنها تتعمد تهديده، ولم يَعُد يقوى على حمل ساقيه وفقَد قدرته على الحركة، ثم سقط متكومًا على الأرض .. سال العرق غزيرًا تحت خديه ووجنتيه، كما لو أنه كان يجري بسرعة تحت الشمس الحارقة، غير أنه كان عرقًا باردًا .. رقد فوق الحشيش ولم يشأ أن يفكر في شيء.

أوه، لا، لن يستطيع مواجهة أبيه وأمه أو حتى «توماس كارستون» الذي يثق فيه كثيرًا ويؤمن به .. أدرك «جون» أن أي شخص آخر أكثر أمانًا منه بالرغم من كونه متعلمًا، وعرف أيضًا بأنه ليس أفضل من «واموهو»؛ فتساءل بينه وبين نفسه: لماذا لا أتزوجها؟ إنني حقًّا لا أعرف فلقد نشأت وكبرت تحت رعاية أب متعصب دينيًّا، وتعلمت تحت إشراف ناظر متعصب في الإرسالية المختصة بالتبشير. لقد حاولت أن أصلي ولكن إلى مَن أتوجه بصلاتي؟ هل أتوجه بها إلى إله «كارستون»؟ إن ذلك زيف ويبدو نوعًا من الكفر والتجديف، فهل أصلي إذن لإله القبيلة؟

لقد سحقه إحساسه بالذنب، وحين استيقظ سأل نفسه: أين أكون؟

أدرك أن «واموهو» قد غادرته فنهض من فوق الحشيش وهو في حال أفضل، ثم بدأ في العودة إلى المنزل بتكاسل وضعف، ومن حسن حظه أن الظلام كان كثيفًا؛ فلم يستطع أحد أن يراه .. كان بمقدوره أثناء العودة أن يسمع بعض الضحكات، والمحادثات الساخنة، والمشاجرات الصادرة من مختلف الأكواخ، كما أمكنه بسهولة رؤية النار الحمراء وهي تتلألأ عبر الأبواب المفتوحة.

فكَّر «جون» قائلًا لنفسه: النجوم .. نجوم القرية.

ثم رفع عينيه فكانت نجوم السماء بعيدة وغير مشرقة حتى خُيِّل إليه أن النجوم تنظر إليه .. كان من اليسير سماع ضحكات وصيحات الأولاد من جهات مختلفة؛ فلم تزل الحياة بالنسبة لهم بسيطة لم يعكر صفاءها شيء، فراح يُعزِّي نفسه قائلًا: سيأتي يوم تعرفون فيه أن الحياة ليست كذلك وحتمًا ستختفي ضحكاتهم.

كان «جون» مرتجفًا .. لماذا .. لماذا .. لماذا لا يقدر أن يتحدى كل توقعات المستقبل ويتزوج الفتاة؟ لا، لا .. إن ذلك مستحيل؛ لأن أباها والكنيسة لن يوافقَا على مثل ذلك الزواج؛ فهي غير متعلمة؛ حيث توقفت عند المستوى الرابع، وقد يكون الزواج منها عائقًا أمام الفرص المتاحة له، وأيضًا أمام ذهابه إلى الجامعة.

حاوَل أن يتحرك برشاقة ونشاط بعد أن استعاد قوته، وسرح بأفكاره وتخيلاته محاولًا شرح فعلته قبل أن يتَّهِم العالم كما يفعل دائمًا، وظل يتساءل عمَّا يستطيع أن يفعله؛ خاصة وأن الفتاة قد أَسَرَتْهُ بجمالها؛ إذ إنها رشيقة القوام، وذات ابتسامة ساحرة تأخذ بالعقول، ولا تضارعها فتاة أخرى، كما أن أية واحدة لا تستطيع الادعاء بأنها متعلِّمة؛ لأن تعليم الفتيات نادر جدًّا؛ مما يجعل الكثير من الأفارقة يرحلون بعيدًا ويتزوجون هناك مثلما يتمنى «جون» أن يرحل خاصة لو رحل بالطائرة العملاقة إلى أمريكا.

قال: ليت «واموهو» تعلمَتْ ولم تكن قد قامت بعملية الختان .. يجب عليَّ أن أتمرد.

كان كوخ أمه مضاء؛ فتردد «جون» في الدخول لتأدية صلاة الليل وسرعان ما رفض الفكرة؛ إذ ربما لم يكن قويًّا بما يكفي لمواجهة والديه .. أطفأ الضوء في كوخه وتمنى ألا ينتبه والده لذلك.

استيقَظ في الصباح مبكرًا وهو خائف ومرتعد، ورغم عدم إيمانه الدائم بالخرافات إلا أنه لا يزال يحب أحلام الليل؛ فقد نشأ وسط سلوكيات القبيلة .. لقد حلم بالختان وشخص ما لم يستطع أن يتبيَّن شكله قاده في الحلم إلى أرضٍ غريبةٍ، ثم ما لبث أن وجد نفسه وحيدًا .. اختفى وتلاشى ذلك الشخص فأبصر شبحًا – كشبح المنزل – جذبه إلى الخلف، ثم جاء شبح آخر هو شبح الأرض التي كان مضطرًّا أن يلجأ إليها وجذبه إلى الأمام حتى تشاجر الشبحان؛ وعندئذٍ ظهرت أشباح أخرى من كل الجهات وراحت تشده من كل ناحية إلى أن تمزق جسده إلى عدة أجزاء، ولم يكن بمقدوره رؤية الأشباح أو الإمساك بأيٍّ منها .. لقد كانوا فقط يَشدُّونه حتى أصبح لا شيء، لا شيء .. وقف بعيدًا ولم يَعُد كما هو، لكنه كان ينظر إلى الفتاة التي وردت في الحكاية والتي لم تكن تملك مكانًا تأوي إليه، وفكَّر في الذهاب إليها لمساعدتها كي ترى الطريق، لكنه عندما ذهب إليها لم يتعرف على الطريق .. لقد أصبح وحيدًا واجتاحته أحاسيس قاتلة .. كان «جون» خربًا ومهدَّمًا ولحظة استيقاظه كان متشيئًا بالعرق.

إن الحلم بالخِتان ليس بالشيء الطيب؛ فهو يجلب الشؤم، لكنه نسي الحلم وراح يضحك .. فتح الشباك فأبصر البلدة كلها غارقة في الضباب، إنه طقس شهر يوليو دائمًا في «ليمورو» .. التلال والأخاديد والوديان والسهول التي كانت تحيط القرية اختفت في الضباب؛ فبدت البلدة كمكان غريب، لكنها أبدًا لم تفقد فِتنتها وسحرها .. «ليمورو» أرض المتناقضات التي تستدعي أحاسيس متباينة في أوقات مختلفة حتى إن «جون» كان مفتونًا بها ذات مرة واشتاق لملامسة الأرض واحتضانها والتمرغ فوق أعشابها، بينما راح في وقت آخر يقاوم التراب والشمس القوية والطرق المثقوبة، ولو أن معاناته كانت فقط بسبب

التراب والضباب والشمس والأمطار لشعر عندئذٍ بالسرور، ولَمَا فكر في يوم من الأيام أن يموت أو يُدفَن في أي مكان آخر غير «ليمورو»، لكنها عيوب الإنسان ورزائله وخياناته المتجسدة في كل القرى الجديدة القبيحة.

عاودته حادثة الليلة الماضية حتى تدفقت في رأسه كالفيضان فشعر مرة أخرى بالضعف، ثم رفع البطانية من فوقه وخرج، وكان ينبغي أن يذهب اليوم للدكان، لكنه متضايق، بالإضافة إلى ذلك الإحساس الغريب الذي لا يفارقه بأن علاقته بأبيه علاقة غير طبيعية، غير أنه ما لبث أن استنكر ذلك الإحساس.

ارتجف وهو يفكر: ستكون الليلة هي يوم الحساب .. لسوء الحظ أن ذلك يحدث في حياتي في الوقت الذي أوشك فيه على الذهاب إلى «ماكيريري» ولكن ربما أتقرب قليلًا من أبي.

ذهب مع أبيه إلى السوق وظل هادئًا طوال اليوم، وكانا يتحركان من دكان إلى آخر لشراء الأشياء من التجار الهنود دون أن يتوقف «جون» عن الإحساس بمخاوفه الشديدة من أبيه .. لقد كبر بما يكفي للتغلب على ذلك الخوف والارتعاش الذي يصيبه كلما تكلم أبوه، أو أصدر أمرًا.

لم يكن «جون» وحده الذي يخاف، وإنما «ستانلي» أيضًا الذي يعمل في الوعظ والتبشير بهمة ونشاط حتى أثناء الطوارئ متحدِّيًا بذلك بوابات الجحيم .. كان دائمًا في وعظه يزجر وينهَى ويُصدر أحكام الإدانة معلنًا أن كل مرتكِبِي الخطايا مصيرهم الجحيم رغم معرفته أن كل ملاحظاته الأخلاقية العظيمة لا تحمل إلا قدرًا ضئيلًا من الحقيقة في جوهرها، وقدرًا لا بأس به من الظاهرية في طبيعتها، لكن أحدًا لم يلحظ ذلك، ولا حتى الأغنام التي يرعاها.

كان الطرد أو الحرمان من الكنيسة هو المصير المحتوم لكل من يُحطِّم القواعد، وكانت رؤية الشباب والشابات واقفين معًا بطريقة تضُر بالكنيسة وأخلاقيات الرَّب تعني حرمانهم من الكنيسة وطردهم؛ مما جعل كثيرًا من الشباب الذين يطمعون في الدين والدنيا معًا يكتفون برؤية فتياتهم في الليل، والذهاب إلى الكنيسة في النهار بدلًا من الذهاب معًا.

كان «ستانلي» يقوم بدور الأب الرءوف تجاه كل الناس في القرية، وكان دائمًا يردد: يجب أن تكون دقيقًا وصارمًا مع أُسرتك .. وهكذا أراد لمنزله أن يكون مثالًا طيبًا، وتمنى أن ينشأ ابنه بالطريقة التي يراها صحيحة، لكن الباعث وراء العديد من أفعال الإنسان قد يكون مختلفًا؛ إذ إنه لا يستطيع أبدًا نسيان وقوعه في الخطأ قبل الزواج، لكنه على أية حال كان يمارس نفوذه الجديد ببراعة نتيجة لانحلال القبيلة.

استغرقت عملية التسوق وقتًا طويلًا، ولاحظ الأب الصمت السائد بينهما ليس بالكلام فقط، وإنما بالإيماءات أيضًا، وعندما وصلَا إلى المنزل اعتقد «جون» أن كل شيء على ما يرام، غير أن أباه ما لبث أن قال: «جون».

– نعم يا أبي.

– لماذا تخلَّفْت عن الصلاة ليلة البارحة؟

– نسيت.

– أين كنت؟

أجابه «جون» ولكن بينه وبين نفسه: لماذا تسألني؟ هل من حقك أن تعرف؟ في يوم ما سأثور ضدك.

وسرعان ما أدرك «جون» أن شيئًا ما يكمن وراء تمرُّده هذا، ولم يكن حدوث شيء ما هو الذي دفعه لذلك التمرد، فقال لأبيه متلعثمًا: أ .. أ .. أنا أعني .. إنني كنت ...

– لا يجب أن تنام قبل أن تفرغ من الصلاة وتذكر ألا تتخلف الليلة.

– سوف أفعل.

شيء ما كان في صوت الولد جعل الأب يتوقف عن الحديث، فذهب «جون» بعيدًا وكأنه أزاح عبئًا ثقيلًا عن كاهله؛ وعندئذٍ شعر أن كل شيء على ما يرام، وعندما حل الظلام ارتدى «جون» ملابس الليلة الماضية نفسها ومشى بخطوات مضطربة نحو المكان المحتوم .. لقد جاء وقت الحساب، ولم يَعد يفكر في شيء .. سيعرفون جميعًا بعد هذه الليلة بما فيهم «توماس كارستون» الذي قال له آخر مرة: أنت مقبل على العالم، والعالم ينتظر كالأسد الجائع لابتلاعك وإبادتك؛ وإذن عليك أن تحترس من العالم.

تذكر كلمات السيد «كارستون» الأخيرة، ولم يكن راغبًا في تذكُّرها .. كان من الأفضل ألا يتذكَّرها، لكنها كانت تقفز إلى ذاكرته رغمًا عنه وكأنها مكتوبة بوضوح في الهواء، أو مطبوعة في ظلام رأسه.

شعر «جون» بالألم يَسري في جسده حين تذكر هذه الكلمات وراح يفكر في السقطة القادمة .. نعم! إنه «جون» الذي سيسقط من بوابات السماء إلى بوابات الجحيم المنتظرة المفتوحة، آه .. ماذا سيقولون؟ سوف يتجنبون جميعًا صحبته، وينظرون إليه نظرات غريبة وزائغة تقول الكثير .. لم يكن يعنيه ذلك كثيرًا، وإنما كانت متاعبه تتمثل في اعتقاده أن السقوط من مرتفَعات الصلاح والطيبة شيء غير عادل، وأن الخوف من الناس والنتائج المترتِّبة على ما يمكن حدوثه هي ما يجعله يفكِّر في السقوط بمثل هذا الرعب.

فكر «جون» في كل أنواع العقاب التي ستحل به، ثم خطرت بباله فكرة الهرب، وكانت شيِّقة لكنها مستحيلة .. إنه يخاف من أبيه، كما أن الناس تحبه، بالإضافة إلى عدم تأكُّده من حقيقة مشاعره تجاه الفتاة التي لا يعرف ماذا يقول لها.

– انظري يا «واموهو» .. سأعطيك نقودًا وتقولين إن شخصًا آخر هو المسئول كما تفعل فتيات أخريات .. نعم، إن كثيرًا من الفتيات يفعلن ذلك، وربما يتزوجك ذلك الشخص، أما بالنسبة لي فذلك مستحيل وأنت تعرفين ذلك.

– لا .. لا أستطيع ذلك، فكيف تستطيع أنت؟ .. أنت ...

– سأعطيك مائتين من الشلنات.

– لا.

– ثلاثمائة.

– لا!

ظلت تبكي، وقد تألَّمَت كثيرًا من جرَّاء ما تسمع وترى.

– أربعمائة .. خمسمائة .. ستمائة!

بدأ هادئًا وما لبث أن ارتفع صوته شيئًا فشيئًا .. تملكه اليأس والقلق فهل كان يعرف ما يقول؟

راح يتحدث بسرعة، وبأنفاس لاهثة وكأنه في عجلة من أمره، وظَل صوته يرتفع: تسعة آلاف .. عشرة آلاف .. عشرون ألفًا.

أصابه الجنون وكان يتحرك في الظلام كالزَّبَد، ثم اتجه ناحية الفتاة ووضع ذراعيه فوق كتفها، وبصوت أجش راح يتوسل إليها بشدة.

شيء ما كان يتصارع بداخله وكان من المخيف فعلًا أن يفكر في غضب أبيه، وأن تتحكم القرية في أفكاره .. هزَّ «واموهو» بعنف معتقدًا أنه يربت فوق كتفها برقة ونعومة .. لقد أصابه الجنون، وفقَد السيطرة على عقله.

– خمسون ألفًا من الشلنات .. ستون.

أصابها الذعر؛ فانتزعت نفسها منه وهي تقول: المجنون، ابن القس المتدَيِّن، الابن المتعلم.

ثم فرَّت بعيدًا، لكنه جرى وراءها حتى أمسك بها، وبدأ يحدثها بودٍّ، لكنه كان يهزها ويهزها حتى ضغط عليها وحاول احتضانها؛ فأطلقت صرخةً مدويةً وسقطت على الأرض.

توقف «جون» عن زيادة الشلنات ووقف مرتعشًا كأوراق الشجر في يوم عاصف، وفي غمرة الخوف هرع إلى المنزل حيث كانوا جميعًا يعرفون.

موجومو

جيمس نجوجي
كينيا

توقفت «موكامي» أمام الباب، ثم أدارت رأسها ببطءٍ وأسى، وتوجهت ببصرها صوب دخان الموقد الكثيف وذلك المقعد الصغير بجانب البيت؛ فترددت قليلًا لكنها قالت لنفسها: لا، لقد قررت ولا بد أن أرحل.

اندفعَتْ في الظلام الموحش بثوبها الرقيق الملطَّخ بالزيت، والمشدود بإحكام فوق رأسها العاري .. كان الثوب متدلِيًا فوق كتفيها الرقيقتين الناعمتين، وكان الهواء مشبعًا بالسحر والهدوء، وما هي إلا لحظات حتى أصابها الفزع من ذلك الظلام؛ فلم تعد تبصر شيئًا؛ وفقدَتْ قُدرتها على الإحساس بأي شيء، وعندئذٍ راحت تتحرك بحذر نحو الفِناء الذي تعرفه جيدًا؛ خشية أن يسمعها أحد.

الفِناء وأربعة أكواخ وظلال كوخ زوجها، شعرَتْ أن كل شيء يدينها إدانة صامتة، ويتوسل لها في هدوء ممتزج بالازدراء والشفقة: أتغادرين زوجك؟ ارجعي!

عبرَتِ الفناء بجرأة وبدون تردُّد، ثم اتجهَت يسارًا نحو الطريق المؤدية إلى البوابة، فتحَتِ البوابة وسرعان ما أغلقَتْها ببطء، ثم توقفتْ لحظة، أدركتْ «موكامي» خلالها أن إغلاق البوابة إنما يعني إغلاق جزء من وجودها؛ فأوشكت على البكاء، لكنها أدارت ظهرها بقلب مثقل، وبدأت في التحرك.

لم تكن تعرف أية طريق ستسلك، ولم يكن يهمها ذلك الأمر كثيرًا؛ فهي تريد فقط أن تهرب وتمضي إلى أي مكان، «ماسيلاند» مثلًا أو «أوكامباني» .. إنها تريد أن تبتعد

عن المدفأة، والفناء، والأكواخ، والناس، وتمضي بعيدًا عن كل شيء يجعلها تتذكر جبل «موهورويني» وسُكَّانه .. لقد قررت ألا تعود أبدًا، ولكن زوجها! لا، إنه ليس زوجها وإنما هو الرجل الذي كاد يقتلها ويسحق روحها .. لا لم يَعُد ممكنًا أن يظل زوجها رغم أنه الشخص نفسه الذي أُعجبت به كثيرًا ذات يوم، فكيف إذن تكرهه الآن؟!

فكَّرَت كثيرًا في حياتها معه، زوجها «موثوجا» الرجل العصامي المتزوج من أربع سيدات يعرف الجميع أنه يعاملهنَّ بقسوة .. تذكرت عدم ثقة والدها بذلك الرجل، وعدم ارتياحه لفكرة أن تعيش ابنته معه وبين زوجاته الأخريات، غير أنها — في ذلك الوقت — لم تُبدِ اهتمامًا بكلام أبيها؛ فقد فتنها «موثوجا» حتى إنها كثيرًا ما رغبت في الزواج منه والانضمام إلى حاشية زوجاته وأولاده .. لقد أثار «موثوجا» اهتمامها، ومشاعرها، وإعجابها بطريقته في المشي والرقص، بالإضافة إلى صوته الجهير، وأصابعه الرياضية، وذلك الغموض وتلك القوة التي كان يتمتع بها.

تذكَّرَت «موكامي» أيضًا كيف كان يغازل كلاهما الآخر بطريقة غريبة، كما أنها ما تزال تذكر نبضات قلبها، وابتسامته العريضة، وذلك العقد الصدفي الذي قبِلَته بعد تردُّد كتذكار للزواج، واحتساء البيرة، ومهر العروس المعتاد .. عادت بذاكرتها للوراء، وفكَّرَت في أولئك الناس الذين لم يُصدِّقوا قبولها الزواج من «موثوجا» خاصة بعد أن رفضت كثيرًا من الشباب، وكانوا ينظرون إليها باستياءٍ مردِّدِين: آه! أيحظى رجل عجوز بمثل ذلك الشباب والجمال؟!

كانوا يتهامسون فيما بينهم أنها لا بد قد وقعت تحت تأثير السحر، ويبدو أن ذلك ما حدث بالفعل فلقد أحبته كثيرًا، وفي يوم زفافها أصابتها الدهشة وهي في طريقها إلى «شامبا» حين اقترب منها ثلاثة رجال فجأة، وحملوها إلى كوخ الرجل الذي تمَّ تشييده خصوصًا لها .. ها هي الآن تتذكر كل شيء .. لقد شدَّها الرجال الثلاثة بقوة من الأرض؛ فانتابها الخوف لحظة قصيرة، وحاولت بكل قوَّتها أن تتخلَّص من أياديهم الرقيقة وهي فوق أكتافهم، لكنهم لم يهتَمُّوا بمقاومتها، وقام أحدهم بقرصها في وجنتيها حتى تَكُفَّ عن محاولة الخلاص وتلتزم الهدوء؛ فما كان منها إلا الاستسلام لتلك المداعبة الغريبة والجميلة جدًّا، والتوقف عن المقاومة، وحينئذٍ شعرت بأن أصابع الرجال المشبعة ببذور الذرة الناعمة تداعب قدميها وجانبيها؛ فانتابتها سعادة حقيقية لم تستطع معها أن تتوقف عن البكاء طوال الطريق إلى بيت زوجها.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى تلاشى حُبُّها الكبير، وفقدَتِ اهتمامها بكل شيء؛ فلقد كان شبابها وجمالها سببًا في اشتعال غيرة الزوجات الأخريات اللَّاتي كن يفعلن كل ما في

وُسعِهن للوقوف دون استمتاعها بحب الرجل كما حدث معهن طوال سنوات .. تذكرَتْ ذلك اليوم الذي نالت فيه الزوجة الكبرى عقابًا بالضرب عندما رفضَتْ تقديم الوقود لها من كوخها، وأشياء أخرى كثيرة جعلتها تكْرَه الزوجات الأخريات اللَّاتي لم يتوقفْن عن محاولة كسب تعاطُف القرية كلها، غير أنها لم تَعُد تهتم بغطرستهنَّ وعدم اهتمامهنَّ بها، وقالت لنفسها: لماذا ينبغي أن أهتم؟ ألم يتحقق حلمي وطموحي وكل شيء في هذا الرجل؟

مضت أيام كثيرة وحين أوشك العام الثالث على الانتهاء بدأ العالم الذي تعرفه «موكامي» يتغير، خاصة وأنها لم تنجب أطفالًا .. امرأة عاقر!

ليس من طفل يؤكِّد الرابطة بينه وبينها!

ليس من طفل يُكرِّس العناق واللَّوم!

ليس من طفل يخلِّد أرواح أجداد زوجها ودم أبيها!

كانوا يبتسمون ويتهامسون؛ فشعرت بالهزيمة .. أوه، كيف تسللت إليها ابتسامات الناس الغريبة الوقحة؟!

همست لنفسها: أنا لا أملك شيئًا يدعوني للخوف، فليشعروا بالانتصار والبهجة كما يشاءون؛ لأنني ما زلت أملك زوجي.

لقد استطاعت «موكامي» أن تَشفي قلبه المتحجر بعض الوقت، لكنه بدأ يضربها، وبدأت هي بدورها تتغير وتشعر بالاستياء .. «موثوجا» المجاهد والفلاح والراقص لم يكن يجد مَخرجًا لكل غضبه المتراكم، وضِيقه، وإحباطاته إلا في ضربها مثلما حدث عندما شاهدها تتشاجر مع الزوجة الكبرى؛ فراح يضربها أمام الجميع دون أن يتحرك أحد للمساعدة؛ وهكذا بدأتْ رحلة العذاب والشقاء .. كان يطلبها في الصباح الباكر ليضربها بشِدة دون أي تحذير أو تفسير، لكنها لم تكن تصرخ مثل الزوجات الأخريات اللاتي كُنَّ يتوسَّلْن ويَطلبْن الرحمة .. كانت «موكامي» ترفض بشِدة أن يَقهر ذلك الضرب إرادتها، وقرَّرت أن تتفوق على كل آلامها؛ إذ لم يكن لها مكان آخر تلجأ إليه، كما لم يَعُد ممكنًا أن تعود إلى بيت أبيها العجوز؛ فلن تقدر على مواجهته، بالإضافة إلى الخجل الذي ستشعر به في حالة عودتها.

كان نسيم الليل باردًا؛ فتدفقت الدموع من عينيها إلى خدَّيها، وانتابها إحساس بالقَمع وهي تشق طريقها إلى أسفل الوادي حيث الشجرة الكثيفة ذات الأشواك .. جلسَت بجوار جدول الماء، وكانت الأشجار الهادئة تذكِّرها بالقرية، وبَدا كل شيء كأنه متعاطف معها غير أن إحساسًا ما لم يفارقها بأن كل شيء كان يستنكر في هدوء محاولتها في الهرب.

ظلَّت تمشي بمحاذاة جدول الماء حتى عَبَرَته من مكانٍ منخفضٍ بأن وضعت قدميها فوق الأحجار الثلاثة المتراصَّة، وكانت ما تزال غاضبة وحزينة جدًّا حتى إنها لم تشعر بالأخطار التي تُحيط بها وهي تفكر: هل هذا هو المكان الذي يُلقُون فيه بالموتى؟ وهل هذا هو المكان الذي تُرفرف فيه أرواح الموتى مع الهواء والأشجار لتضايق الغرباء والمتطفلِين؟ كانت غاضبة من العالم ومن زوجها، لكن غضبها من نفسِها كان أكثر حدَّة؛ فراحت تسأل نفسها: هل أنا دائمًا مخطئة؟ وهل لا بد أن أدفع ثمنًا باهظًا لانتزاع نفسي من ذلك الرجل الذي ضحَّيْت بشبابي وجمالي من أجْلِه؟

شعرت بضيقٍ شديدٍ وأصبحت الدموع المتدفقة من عينيها أكثر غزارة.

أوه، يا أرواح الموتى .. تعالي من أجْلي!

أوه، مورونجو، يا إله جيكويو وإله مومبي.

يا من يَقطُن مرتفعات كيرينياجا ولا يزال في كل مكان.

لماذا لا تخلِّصني من ذلك الشقاء؟

أمي، الأرض الغالية .. لماذا لا تنفتحين وتبتلعينني

كما ابتلعني جومبا الذي اختفى تحت جذور ميكونجو؟

هكذا كانت تتوسَّل، وتبْتَهل إلى أرواح الموتى والأحياء؛ كي تأتي وتنقلها بالقوة إلى حيث يصبح من المتعذَّر رؤيتها مرة أخرى، ثم فجأة — وكأنها استجابة لتوسلاتها — سمعت من بعيد صوتًا حزينًا وشجيًّا .. هبَّت الرياح بقوة، وتلاشت النجمة الوحيدة في السماء؛ فأصبحت وحيدة وسط غموض الغابة؛ وعندئذٍ شعرت بشيء ما يلمسها، شيء ما بارد ولا حياة فيه فقفزت من مكانها وراحت تصرخ بقوة، وكان صدى صرخاتها يتردَّد عَبْر الغابة كلها.

تملَّكها خوفٌ جارفٌ وظلَّ كل جسدها يرتجف، وما هي إلا لحظة قصيرة حتى أدركت بأنها ليست وحيدة، فها هي آلاف الأعين تتوهج وتتلألأ مع صرخاتها وبعض أيادٍ كثيرة لا يمكن رؤيتها كانت تدفعها للأمام وللخلف؛ فأيقنت على الفور بأنها موجودة الآن في أرض الأشباح وحيدة وبعيدة عن الوطن؛ فتسلَّلت القشعريرة إلى جسدها، ولم تستطع أن تحس شيئًا أو تفكِّر في شيء، كما فقدَتْ قدرتها على الصراخ .. لا بد أنه القدَر، إنها إرادة مورونجو .. فقدت مقاومتها المتبقية وشعرت بالنهاية تقترب، نهاية أحلامها وطموحاتها .. إن ذلك يدعو فعلًا للسخرية، فهي لم تَشأ أن تموت، وإنما كانت فقط تتطلَّع إلى فرصة أخرى تبدأ معها حياة جديدة مليئة بالعطاء، ولا تتسِم بالأخْذ فقط.

رقدت فوق الأرض دون أن يفارقها إحساسها بالبؤس والشقاء، وكانت تسمع من بعيد صرخات الضبع، ونَعيق البومة مع استمرار هبوب الرياح، كما بدأت الأمطار تتساقط؛ فشعرت وكأن الأرض تتشقَّق من تحتها، ثم أبصرَت فجأة — من خلال البرق والرعد — شجرة بعيدة وضخمة ذات أوراق كثيفة تتمايل حول جذعها .. عرفت «موكامي» أنها شجرة موجومو المقدسة، فقالت: ها هو المكان المقدَّس، ها هو الملاذ!

بدأت تجري دون أي اكتراث بالأمطار أو الرعد أو الأشباح، وقد تلاشى زوجها من ذاكرتها، وكذلك جبال موهورويني، وذلك العبء الذي تحمله في قلبها .. ظلَّت تجري عَبْر الدغل الشائك وهي تتخبط في الأشجار ثم تسقط على الأرض وتُسارِع بالنهوض .. لم تَعُد عاجزة أو قلقة، ولم يكن يشغلها شيء سوى الوصول إلى الشجرة فقط، إنها مسألة حياة أو موت، هي معركة من أجل البقاء، فقد تجد هناك تحت شجرة موجومو المقدَّسة الحماية والملجأ والسلام .. هناك قد تُقابل ربها وإله شعبها مورونجو .. كانت تجري برغم جسدها الهزيل، ثم شعرت فجأة بسخونة داخل رحمها.

أصبحت قريبة من المكان المقدس، قريبة من الهيكل، قريبة من الخلاص؛ فسارعت بالهرولة نحو الهيكل وكأنها تطير، أو كأن رُوحها تحلِّق؛ فشعرت بأنها خفيفة، وحين وصلت كانت تلهث بقوة ولا تقدر على التنفس.

لم تتوقف الأمطار عن السقوط، لكن «موكامي» لم تكن تشعر بشيء وكانت نائمة تحت شجرة الإله ذات الأوراق الباعثة على الحماية، وقد انتابتها نوبة أخرى من السحر.

استيقظت وقد اعتراها إحساسٌ جديدٌ .. ماذا؟ لا شيء، لا أحد! لا بد أنها مومبي الواقفة إلى جوار زوجها جيكويا هي التي لمَسَتْها برفق لمسة حانية تسلَّلت إلى جسدها، أو أنها كانت تحلُم .. قالت مومبي: إنني أم الشعب .. يا له من حلم غريب وجميل!

نظرت «موكامي» حولها فعرفت أن المكان لا يزال غارقًا في الظلام، لكنها أبصرَت الشجرة القديمة الصامدة القوية والتي لا يمكن التنبؤ بعمرها فهمسَتْ لنفسها: كم من الأسرار تختزنها تلك الشجرة؟

شعرت بأنها إنسانة جديدة وراضية مفعمة بالأمل، فقالت: يجب أن أعود إلى بيتي وزوجي وأهلي.

ثم راحت تنام من جديد .. إنها نوبة السحر!

بدأت الشمس، ترسل خطوطها الصفراء المتلألئة عَبْر الغابة من اتجاه الشرق بينما كانت «موكامي» مستنِدة إلى الشجرة، وحين لامست جسدها خطوط الضوء الشاردة شعرت

بجسدها كله يهتز وبالدم يذوب في عروقها .. أوه، لقد شعرَت بدفء شديد، وسعادة غامرة، كما أحسَّت بأنها تحلِّق وأن روحها ترقص، بينما كان رحِمها يتحدث لغة جديدة فعرفت بأنها حامل.

نهضت من رقدَتِها؛ استعدادًا للذهاب وراحت تحلِّق في الفضاء بعيون دامعة دون أن ترى شيئًا، إنها دموع العرفان بالجميل واليأس هي التي تتدفق فوق وجْهها، وهناك فيما وراء الغابة، وفيما وراء جدول الماء بدَت عيناها وكأنهما تبصران شيئًا، شيئًا غامضًا ومختفيًا في المستقبل البعيد .. أبصرت شعب موهورويني، ولاح أمامها زوجها قويًّا لا تبدو عليه ملامح الكبَر وهو واقف بين شعبه؛ فهمسَت لنفسها قائلة: ذلك هو مكاني العادل، هناك إلى جوار زوجي وبين الزوجات الأخريات .. يجب أن نتوَحَّد لنخلقَ حياةً جديدةً.

ثَمَّة بقرة كانت تخور هناك بعيدًا استيقظت «موكامي» على إثرها من حلم يقظتها، وبدأت تتحرك قائلة: لا بد أن أذهب!

بينما كانت شجرة موجومو الضخمة لا تزال سامقة وصامتة ومليئة بالأسرار.

سارزان[1]

بيراجو ديوب
السنغال

تَعلَّم «إسماعيل بيراجو ديوب» بمدارس الليسيه في السنغال، ثم درس الطب البيطري في جامعة تولوز بفرنسا، وبعد عودته لأفريقيا عمل بيطريًّا لعدة سنوات في «أواجادوجو» التي هي الآن جزء من فولتا العليا .. كتب ثلاث مجموعات قصصية، وقصة «سارزان» هي إحدى قصص المجموعة الأولى.

غادرت كل العائلات «دوجوبا» كما تَفِر حبَّات الذُّرة من ضربات المدقة، أو كما تتساقط الفاكهة الناضجة من فروعها المليئة بعصارة النبات؛ حيث رحل بعض الشباب للعمل في «سيجو» و«باماكو» و«داكار»، بينما اتجه آخرون للعمل في حقول الفول السوداني السنغالية، وكانوا يعودون في موسم الحصاد فقط بعد أن تصعد المنتَجات للسفينة؛ فهم يعرفون جيدًا أن جذور حياتهم لا تزال في «دوجوبا» المقيَّدة بتعاليم الأجداد والتقاليد القديمة؛ مما جعلهم غير قادرين على الابتعاد عنها طويلًا. لكن «تيمو كيتا» استجاب للمغامرة أكثر من الآخرِين؛ حيث ذهب إلى «كاتي» و«داكار» ومنها إلى «الرباط»، ثم إلى «فريجوس» و«دمشق»، وكان قد تلقى تدريبه في السنغال، وحارب في المغرب، وعمل حارسًا

[1] سارزان SARZAN: لفظ سنغالي يعني الرقيب. (المترجم)

في فرنسا، ودوريًّا في لبنان، ثم عاد إلى «دوجوبا» رقيبًا في قافلتي الطبية بعد أن التقيتُ به أثناء جولاتي البيطرية في السودان داخل مكتب المدير المحلي عندما كان يطلب تسجيل اسمه في الشرطة، أو العمل كمترجم.

قال له الحكمدار: لا .. من الأفضل أن تعود إلى قريتك؛ لأنك سافرت كثيرًا، وتتمتَّع بخبرةٍ كبيرةٍ؛ وهكذا فإنك تستطيع أن تُعلِّم أهلك شيئًا عن حياة الرجل الأبيض، وتساعد في تحضُّرهم بعض الشيء.

ثم خاطبني الحكمدار قائلًا: دكتور .. هل من الممكن اصطحاب «كيتا» معك؟ أعتقد أن عودته معك في الطريق بعد غياب خمسة عشر عامًا سيُخفِّف عنه كثيرًا، وسيحميه من البكاء والتمزق.

جلستُ أنا والرقيب في مقعد الشاحنة الأمامي بجوار السائق، واحتل مساعد السائق، والحارس المدني مكانًا صغيرًا بالقرب من الأمصال ومواد التلقيح، بينما وضعوا الطعام والأدوات الطبية في الخلف، وما هي إلا لحظات قليلة حتى بدأ الرقيب يسرد لي حياته، جنديًّا حتى أصبح رقيبًا متقاعدًا، وحين راح يحدثني عن «مارسيليا» و«تولون» و«فريجوس» و«بيروت» كان واضحًا أن «كيتا» شارد الذهن.

كان الطريق متعرِّجًا ومؤطَّرًا بألواح خشبية مغطاة بالطين، وقد تحوَّلت بفعل الحرارة الشديدة إلى تراب ملوث بالزيت والشحم؛ مما حجب عنا رؤية القِرَدة التي تقفز علينا أثناء السير .. اكتسَت وجوهنا بالتراب؛ فبَدَت كالقناع الأصفر، وأحاط بنا الضباب الخانق؛ وعندئذٍ أبصر «كيتا» زحام مرسيليا، والبحر الأزرق، وبنايات فرنسا الجميلة، وعند الظهيرة وصلنا إلى نهاية الطريق حيث مدينة «مادوجو»، ثم واصلْنا مسيرتنا فوق الجياد؛ أملًا في الوصول إلى «دوجوبا» قبل الغروب.

قال «كيتا»: سأبدأ غدًا في إصلاح هذا الطريق حتى تتمكن في المرة القادمة من قطع الطريق كله بالسيارة إلى «دوجوبا».

أعلنَت دقات الطبول الخفية عن اقترابنا من القرية، وقُبالة السماء الرمادية الشاحبة لاحت في الأفق أكواخ، وعشش كثيرة ذات لون رمادي مُعتِم تحيطها ثلاث شجرات من النخيل، كما امتزجت نغمات الفلوت الحادة بأصوات الطريق المتهالك عندما وصلنا إلى «دوجوبا»، وعندئذٍ سألت عن عمدة القرية.

– دوجوتيجي .. ها هو ابنك الرقيب «كيتا».

توقَّفَت دقات الطبول، وقفز «كيتا» من فوق حصانه؛ فاستقبله العمدة العجوز بكلتا يديه، وقام باحتضانه، بينما راح الرجال الكبار يتحسسون ذراعيه وكتفيه، وقامت بعض

النسوة العجائز برفع اللفافة من فوق ركبته، ثم تدفَّقَت الدموع بغزارة فوق الوجوه السوداء المليئة بالتجاعيد والندوب، بينما راحوا جميعًا يصيحون: كيتا .. كيتا .. كيتا.

قال العجوز مرتجفًا: إنهم حقًّا رجال طيبون وكرماء، أولئك الذين جاءوا بك اليوم.

كان يومًا غريبًا في «دوجوبا» ولا يشبه أي يوم آخر .. إنه يوم كوتيبا أو يوم الاختبار الذي يعني عودة شخص ما بعد أن رحل بمتاعبه، وتجوَّل بها ثم أعادها لشخصٍ آخرَ.

جلس «كيتا» وسط دائرة متحركة من الناس وهو يلهث من ضربات السياط التي يختلط صوتها بنغمات الفلوت الحادة ودقات الطبول الصاخبة، وكانت النار تضيء جسده الأسود ويصعد بريقها إلى قمة أشجار النخيل المتأرجحة بفعل رياح المساء .. إنه يوم كوتيبا، أو اختبار قوة الاحتمال ومدى الإحساس بالألم؛ فالطفل الذي يصرخ عندما يؤذي نفسه ليس سوى طفل صغير، أما الذي يصرخ عندما يُصاب بأذًى فإنه لن يكون رجلًا.

إنها وسائل البدائيين المتوحشين نفسها التي جعلت من «تيمو كيتا» وأمثاله يواصلون السير طوال يوم كامل وهم مُحمَّلون بأعباء ثقيلة فوق رءوسهم دونما توقُّف حتى أصبحوا قادرِين على خوض المعارك بشجاعة.

كنت أعتقد أننا تحرَّرْنا من هذه البدائية، لكن شباب قريتنا لا يزال مؤمنًا بالأحجية، والألغاز، والضرب فوق الظهور وأطراف الأصابع، كما أن الذكريات القديمة وكلمات الأغاني التي سمعناها في الليالي المظلمة لا تزال تحتل مكانًا بارزًا في رءوسهم .. أدركتُ عندئذٍ أننا لم نحقق شيئًا وتمنيتُ لو استطعنا التخلِّي عن هذه الأساليب والعادات القديمة .. دخلتُ الكوخ الذي أعدُّوه لي، فشممتُ رائحة البانكو والصلصال والقش المتعفن الذي يقي الكوخ من الأمطار .. كانوا يدفنون موتاهم في تلك الأكواخ، ويشيرون إليهم بقرون الحيوانات المثبَّتة فوق الحائط، وهكذا تسللت إلى أنفي أيضًا رائحة الموتى الثلاثة المشار إليهم.

في الصباح الباكر سارعتُ بالرحيل حين كانت «دوجوبا» لا تزال نائمة ومخمورة من التعب وطاسات البيرة التي كانوا يتبادلونها طوال الليل.

قال «كيتا»: إلى اللقاء، وأعدك بأن يكون الطريق ممهدة حين تعود في المرة القادمة.

أعاقني العمل في القطاعات والمواقع الأخرى عن العودة إلى «دوجوبا» قبل عام كامل .. كان الوقت متأخرًا والهواء ساخنًا ولزجًا؛ فاخترقْنا الطريق بصعوبة، ووصلْنا بعد رحلةٍ شاقةٍ غير أن الرقيب «كيتا» التزم بوعده ومهَّد الطريق حتى «دوجوبا» .. احتشد الأطفال حول العربة صائحين كما يحدث في كل القرى؛ حتى اكتستْ أجسادهم الصغيرة

بالتراب وتلوَّنت بلونٍ أبيض رمادي، وبجانبهم كانت تسير الكلاب بعظامها البارزة وآذانها المقصوصة، وكان أحد الرجال يتوسطهم مشيرًا بإحدى يديه وملوحًا بذيل البقرة في يده الأخرى.

توقَّفت العربة فلم أخطئ في التعرُّف عليه .. إنه الرقيب «كيتا» .. نعم، إنه «كيتا» وقد ارتدى سترة قديمة بدون أزرار وذات لون شاحب وبنطالًا قطنيًّا قصيرًا كاكي اللون يصل إلى ركبتيه، وكان حافي القدمين يلفُّ ساقيه ببعض الخِرَق القديمة، ويضع فوق رأسه قبعة عسكرية.

– كيتا.

تبعثر الأطفال كالعصافير صائحين: آيي .. آيي.

لم يصافحني «تيمو كيتا»، لكنه نظر إلى وجهي وبَدا كأنه لا يعرفني، أو كأنه لم يشاهدني من قَبل، ثم راح يحدِّق إلى لا شيء، وسارَع فجأة في تحريك ذيل البقرة وهو يصيح بصوت أجش:

استمِع إلى الأشياء.
إلى صوت الحريق.
استمِع إلى خرير المياه.
استمِع إلى تأوهات الأشجار مع الرياح.
إنهم الأجداد يتنفسون.

قال السائق: إنه مجنون.

أصدرت له بإشارة مني أمرًا بالسكوت؛ فبدأ الرقيب يغني بصوتٍ غريبٍ:

أولئك الموتى لن يذهبوا أبدًا.
إنهم في الظلام الذي يجلب الضوء.
وفي الظلام الباعث على الغموض.
إنهم ليسوا تحت الأرض.
إنهم في ارتعاشة الأشجار.
في تأوهات الأخشاب.
في الماء الجاري.

وفي الماء الساكن.
إنهم في الكوخ .. في الزحام.
الموتى ليسوا بموتى .. لم يذهبوا أبدًا.
إنهم بين أثداء المرأة.
وفي بكاء الطفل واحتراق الأخشاب.
في أنين الصخرة ونُواح العُشب.
إنهم في الغابة والبيت.
إن الأجداد يتنفَّسون، ونحن مُجبَرون على الالتزام بقوانينهم.

عاد الأطفال وتجمَّعوا في دائرة حول العمدة العجوز وكبار رجال القرية، قدمتُ التحية ثم سألتُ عما حدث للرقيب «كيتا».

أجاب الرجال: آيي .. آيي.

وردَّد الأطفال: آيي .. آيي.

ثم قال الأب العجوز: إنه الآن ليس «كيتا» وإنما هو سارزان الذي أساء للموتى والأرواح فعاقبوه ونالوا منه.

عرفت أن والد «كيتا» أراد أن يُقدِّم قربانًا عبارة عن دجاجة بيضاء؛ امتنانًا منه للأسلاف الذين أعادوا إليه ابنه، لكن «كيتا» قال يومئذ: لقد عدت؛ لأنني كنت مضطرًّا للعودة، ولا شأن للأسلاف بعودتي.

كما أضاف: دع الموتى جانبًا؛ لأنهم لا يستطيعون فعل أي شيء للأحياء.

لكن العمدة العجوز لم يهتم بما سمع وقدَّم القُربان، فقال «كيتا» أثناء الذبح: لا فائدة من ذلك، كما أنه من الغباء أن نقتل الدجاج ونَصُب دمه في أركان الساحة.

ثم استطرد قائلًا: إن الذُّرَة، والقمح، والفول السوداني، والبطاطا سوف تنمو وتثمر بشكلٍ أفضل لو استخدم الفلاحون المحراث الذي أرسله لهم المدير المحلي.

عرفت أيضًا أن «كيتا» قطع فروع الشجرة المقدسة وأحرقها .. تلك الشجرة التي كانوا يذبحون عندها القرابين، ويَعتبرونها حامية القرية والأرض المزروعة، كما أنه في يوم ختان الأولاد والبنات هرع الرقيب «كيتا» إلى من يقوم بعملية الختان وانتزع من تحت رأسه ريش القنفذ، وذلك الريش الذي يخفي به جسده وهو يقول: وسائل البدائيين.

أبصر في يوم الكرنفال تلك الأقنعة المخيفة المضحكة فتذكر أن البِيض يرتدون الأقنعة من أجل المتعة واللهو، وليس من أجل تعليم أبنائهم حكمة القدماء. وحين توجه إلى كوخه

انتزع حقيبته الصغيرة المعلَّقة — التي تمثل بالنسبة لهم روح العائلة — وألقى بها في الفناء، بينما اتجَه في يوم آخر ناحية الخشب المقدَّس، وحطَّم أواني الذُّرة المغلي واللبن الحامض، وكسر التماثيل، واقتلع الأوتاد الملوثة بالدم المتجمد وريش الدجاج وهو يكرر: وسائل البدائيين.

كانت الشمس في طريقها للغروب حين انحنى «كيتا» فوق جذع الشجرة، وراح يتحدث عن العرَّاف الذي ذبح الكلاب وقدَّمها قُربانًا في الصباح، وواصَل حديثه عن الكبار الذين لم يتجرءوا على سماعه، وعن الصغار السائرين في ركْب الكبار وما زالوا يستمعون إليهم حتى شعر — أثناء الحديث — فجأة بوخزة في كتفه الأيسر؛ فمالت رأسه وزاغت عيناه وهو ينظر إلى مستمعيه، وحين بدأ يتحدث من جديد امتلأ ركن فمه برغوة بيضاء ولم تَعُد الكلمات هي الكلمات نفسها.

سلبَت الأرواح عقله فصاحوا بفزع: ليلة سوداء .. ليلة سوداء.

ارتعش الأطفال والنساء في أكواخهم، وقالوا مردِدين: ليلة سوداء .. ليلة سوداء.

لم أستطع النوم قبل الفجر وفي الكوخ حيث يعيش الأموات، كنت أستمع للرقيب «كيتا» وهو يروح ويجيء طوال الليل باكيًا ومغنيًا:

اللبن الحامض في الطاسة.
أعواد النبات الخائفة في الكوخ.
ليلة سوداء .. ليلة سوداء.
أرواح متذبذبة .. تائهة ومتأوهة.
تتمتم بكلمات مفقودة.
كلمات تجلب الفزع.
ليلة سوداء .. ليلة سوداء.
النهر اليتيم يصرخ ويستنجد
بخوف الناس التائهين بلا جدوى.
الخوف متربص في الكوخ،
في المصباح المشتعل،
في النهر اليتيم،
في الغابة المتعبة،
في قلق الأشجار الشاحبة،

في الأخشاب المظلمة.

ليلة سوداء .. ليلة سوداء.

لم يَعُد يناديه أحد باسمه؛ فلقد نالت منه الأرواح وصنع منه الأجداد رجلًا آخر .. كان «تيمو كيتا» قرويًّا مولعًا بالقرويين، أما الذي رحل فهو سارزان .. سارزان المجنون.

فتاة سوداء

سيمبن عثمان
السنغال

كاتب ومخرج سينمائي، وُلد في السنغال عام ١٩٢٣م .. عمل صيادًا، وسمكريًّا، وبَنَّاءً، وميكانيكيًّا قبل أن يصبح عاملًا بأحد الموانئ ثم رئيسًا لاتحاد العُمَّال .. كتب Le Docker Noir عام ١٩٥٦م، ومن أهم أعماله القصصية والروائية God's Bits of wood، وTribal scars، وThe money order، وThe Last of the empire، وXala، كما قام بإخراج العديد من الأفلام.

في مدينة «أنتيب» عَبَر الريفيرا وعند الطريق المؤدية إلى «يرميتاج» وقفت سيارتان خرج منهما عدد من الرجال اندفعوا إلى أسفل الرمال، واتجهوا صوب منزل يحمل لافتة تقول «فيلا السعادة الخضراء».

كان أحدهم ضابط شرطة والآخر طبيبًا شرعيًّا، ورجلان من مفتِّشي البوليس يرتديان زِيَّ الشرطة، ولم يكن ثمة شيء أخضر حول فيلا السعادة الخضراء سوى اسمها، لكن حديقة كانت مرتبة على الطريقة الفرنسية.

اقترب الضابط من المنزل وظل يتنَقَّل بنظراته في كل اتجاه حتى توقَّفت عيناه عند الشباك الثالث ذي الزجاج المكسور والذي يتدلَّى منه أحد السلالم، بينما دخل مفتش الشرطة، وأحد المصوِّرين إلى داخل المنزل، وظلُّوا يُحدِّقون بانبهار ودهشة إلى التماثيل الأفريقية، والأقنعة، وجلود الحيوانات، وبَيض النعام المتناثر فوق الحائط.

امرأتان كانتا تبكيان، وتُشبِه إحداهما الأخرى إلى حدٍّ كبيرٍ .. الجبهة المستقيمة نفسها، والأنف المنحني، ودوائر سوداء حول العين صار لونها أحمر من البكاء .. قالت ذات الرداء الشاحب: غفوتُ قليلًا ثم مضيتُ إلى الحمَّام؛ فوجدتُ الباب مغلَقًا من الداخل.

استطردَت وهي تُحرِّك أنفها: قلتُ لنفسي لا بد أن الخادمة تأخذ حمامًا .. أوه، لقد قُلت الخادمة رغم أننا دائمًا كنَّا نناديها باسمها «ديوانا» .. انتظرْت ساعة وأكثر لكنها لم تخرج؛ فعدتُ إلى الخلف وظللتُ أنادي ثم طرقتُ الباب دون جدوى؛ فسارعتُ باستدعاء جارنا القبطان البحري.

توقفَت عن الحديث ومسحَت أنفَها، ثم بدأَت تبكي من جديد، بينما كانت أختها الصغرى ذات الشعر القصير جالسة ورأسها مُعلَّق بيدها.

– هل أنتَ الذي اكتشف الجثة؟

– نعم، إنه أنا وذلك حين استدعَتني مدام «بوشيه» وأخبرَتني أن البنت السوداء أغلقت على نفسها الحمام؛ فاعتقدت في البداية أنها نكتة، لكنني أحضرتُ السُّلَّم معي.

– أنتَ إذن الذي أحضرتَ السُّلَّم؟!

– لا، إن الآنسة «دوبوا» أخت المدام هي صاحبة الفكرة، وما إن وصلت إلى الشباك حتى رأيت الفتاة السوداء غارقة في الدم.

– أين مفتاح الباب؟

قال المفتش: ها هو يا سيدي.

– أردت فقط أن أراه.

– قال المفتش الآخر: لقد تفحَّصتُ الشباك.

وقال رجل البحرية المتقاعِد: أنا الذي فتحْتُه بعد أن كسرت الزجاج.

– أي زجاج تقصد؟

أجابت الأخت: الثاني من أعلى.

لَفُّو الجثة في بطانية، ووضعوها فوق النقَّالة، وكانت قطرات من الدم تتساقط من الجثة، وحين رفع الضابط البطانية قليلًا أصابه العبوس؛ لَمَّا شاهد رقبة الفتاة السوداء مقطوعة من أحد أذنيها إلى الأخرى.

قال أحدهم من فوق السلالم: بهذه السكين .. سكين المطبخ.

– هل جاءت معكم من أفريقيا أو أنكم استأجرتموها هنا؟

– جاءت معنا عندما عدنا في أبريل الماضي، لكنها حضرت بطريق البحر؛ لأن زوجي يعمل في البحرية الجوية في داكار والشركة لا تدفع تذاكر الطيران إلا للعائلة .. لقد عملت عندنا في داكار لمدة عامين ونصف وربما ثلاثة أعوام.

– كم عمرها؟

– لا أعرف بالضبط.

– يقول جواز سفرها إنها من مواليد ...

– أوه .. إن الأفارقة لا يعرفون متى يولَدون.

تقدَّم الضابط البحري ويداه في جيبه، ثم قال: لا أعرف سببًا لقتل نفسها فقد كنا نعاملها معاملةً حسنةً، وكانت تشاركنا الطعام نفسه، الحجرات نفسها، تمامًا مثل أولادي.

– أين زوجك؟

– ذهب إلى باريس أول أمس.

قال المفتش وهو يتطلَّع إلى الحُلى الصغيرة: ولماذا تعتقدون أنها حالة انتحار؟

أجاب الضابط المتقاعد: لماذا نعتقد؟! .. كيف لأحد أن يحاول قتل فتاة زنجية؟ إنها لا تخرج أبدًا ولا تعرف أحدًا سوى أطفال المدام.

شعروا بأن الأمر لا يستدعي كل ذلك؛ فأصابهم الملل؛ إذ إن انتحار خادمة لا يعادل كومة من الفول.

– لا بُدَّ أنه حنين العودة للوطن؛ فقد أصبحت تصرفاتها في الأيام الأخيرة غريبة جدًّا على غير العادة.

صعد الضابط السلالم بصحبة أحد المفتِّشين، وقامَا بفحص الحمَّام والشباك.

قال المفتش: شيء ما في هذه الحكاية.

كان الآخرون ينتظرون في حجرة المعيشة، وبعد ساعة من الوصول خرج المفتش مع الضابط، وقال: سنخبرك بنتيجة التحقيق.

انطلَقوا بسياراتهم، وفي فيلا السعادة الخضراء ظلت المرأتان، وضابط البحرية المتقاعِد في حالة من الصمت، بينما راحت مدام «بوشيه» تتذكر فيلَّتها الأنيقة في أفريقيا و«ديوانا» وهي تدفع البوابة الحديدية مشيرة إلى راعي الغنم الألماني أن يتوقف عن الصياح .. هناك في أفريقيا حيث بدأ كل شيء حين كانت «ديوانا» تسير ستة كيلو مترات على قدميها ثلاث مرات في الأسبوع، وكانت تفعل ذلك في الشهر الأخير بسعادة وقلبها يدق وكأنها أسيرة حب ما للمرة الأولى حتى إن المسافة أصبحت قصيرة بالنسبة لها حين أعلنت المدام نبأ سفرها إلى فرنسا.

– فرنسا! .. هكذا صاحت «ديوانا» فأصبح كل ما حولها قبيحًا بما في ذلك تلك الفيلات الرائعة التي كانت تُثير إعجابها .. أصبح لزامًا عليها أن تستخرج بطاقة شخصية؛ فجمعت كل مدخراتها الزهيدة لهذا الغرض، وهي تفكر قائلة: إنني في طريقي إلى فرنسا!

كانت المدام واقفة تحمل بين يديها قائمة جَرْد الأمتعة حين قالت: أترغبين في رؤية والديك؟ وهل تعتقدين أنهما سيفرحان؟

– نعم مدام، كل العائلة وافقت .. لقد أخبَرْتُ ماما بنفسي، وأيضًا بابا «بوتوبا».

كان وجهها متلألئًا بالسعادة، ومثبتًا باتجاه الحوائط الفارغة، ثم بدا عليها الذُّبول فجأة، واضطربت ضربات قلبها وهي تقول: لو غيرتِ المدام رأيها لأصابني المرض، لكنني سأتوسل إليها كثيرًا.

أصبح وجه «ديوانا» الأسود الأبنوسي كئيبًا وهي تخفض عينيها، فقالت المدام: هل ستغيرين رأيك في اللحظة الأخيرة؟

– لا، مدام إني ذاهبة.

كانت «ديوانا» تحلم برؤية فرنسا ذلك البلد الجميل الغني، ومشاهَدة مُتَع الحياة التي كثيرًا ما سمعَت عنها، ثم العودة إلى بلدها منتصرة ومعها الكثير من النقود والهدايا لكل شخص .. كانت «ديوانا» تحلم بحرية الذهاب إلى حيث تريد دون اضطرار للعمل الشاق؛ ولذلك فإن المرض سيصيبها حتمًا إذا تراجعت المدام عن رأيها، لكن المدام تذكَّرَت الإجازات الثلاثة الماضية التي أنجبت خلالها طفلين حيث راتب الخادمة في فرنسا مرتفع، كما أن الخادمة في فرنسا ترُد على المدام واحد بواحدة، ولا تستطيع البقاء طويلًا؛ مما جعل المدام تقوم بدور الأم؛ ولم تستطع بالتالي أن تقضي إجازة حقيقية؛ فلجأت إلى إغراء زوجها بالعودة إلى أفريقيا؛ حيث نشرت إعلانًا في كل الصحف ووقع اختيارها على «ديوانا» القادمة لتوِّها من بلدها والتي استمرت في عملها ثلاث سنوات أنجبت المدام خلالها طفلين آخرَيْن.

عندما فكَّرَت المدام في إجازتها القادمة راحت تغني، ثم نظرت إلى «ديوانا» وقالت لها: هل قدَّمْت بطاقتك للسيد؟

– نعم، مدام.

– عُودِي إلى عملك وأخبِري الطباخ أن يُقدِّم لكم وجبةً جيدةً.

– شكرًا مدام.

انطلقت «ديوانا» إلى المطبخ بينما ظلَّت المدام تعيد ترتيب، وجَرْد الأشياء.

أثناء وقت الظهيرة أعلن نُبَاح الكلب عن قدوم السيد الذي هبط من سيارته البيجو، فسألَتْه المدام بعصبية: ألم يأتِ رجال العفش بعد؟

– سيأتون في الثانية إلا ربعًا .. ماذا عن «ديوانا»؟

ذهب أكبر الأطفال لاستدعائها فجاءت مسرعة، وقالت: نعم، مدام.

– إن السيد هو الذي يريدك.

– شيء جميل، ها هي تَذكرَتك وبطاقتك.

مَدَّت «ديوانا» يدها لتناوُل التَّذكرة والبطاقة، لكن السيد قال لها: احتفِظي بالبطاقة فقط وسأعتني أنا بالتَّذكرة .. إن الدوبن يعودن في السفينة نفسها وسوف يهتمون بك، فهل أنت سعيدة بالذهاب إلى فرنسا؟

– نعم، سيدي.

– أين حقائبك إذن؟

– في شارع اسكارفيه يا سيدي.

– بعد أن أتناول غذائي سأذهب بالسيارة لإحضار حقائبك.

قالت المدام: أحضرِي الأطفال من الخارج يا «ديوانا» فقد حان وقت راحتهم.

– حاضر، مدام.

لم تكن «ديوانا» جائعة، وكان مساعد الطباخ الذي يصغُرها بعامين حزينًا؛ لأنه سيفقد عمله برحيلهم؛ مما جعله يشعر باستياءٍ شديدٍ نحو الخادمة التي كانت مستنِدة إلى الشباك الكبير المؤدِّي للبحر تراقب الطيور المحلِّقة في المَدى الفسيح من اللون الأزرق.

ظلت «ديوانا» تقلِّب بطاقتها من جهة إلى أخرى وهي تبتسم في هدوءٍ، ولم تكن سعيدة بعدم جمال الصورة، لكنها قالت: لا يهم .. إنني مسافرة.

قال السيد للطباخ: إن الطعام فاخر اليوم، لقد تفوَّقت على نفسك، والمدام مسرورة بك جدًّا.

وقف مساعد الطباخ مشدودًا في انتباه وراح «سامبا» الطباخ يُسوِّي من قبعته البيضاء ويقول وهو يحاول أن يبتسم: أشكرك جدًّا سيدي، وأنا أيضًا مسرور جدًّا ما دام السيد والمدام سعيدين .. أنت سيد لطيف جدًّا، لكن عائلتي كبيرة وغير سعيدة، وعندما ترحل يا سيدي لن أجد عملًا آخر.

– سنعود أيها الرجل الطيب، كما أنك قادر بموهبتك أن تجد عملًا آخر في وقتٍ قصيرٍ.

ذهب السيد والسيدة فسارَع «سامبا» يصفع «ديوانا» التي بادلته بصفعة أخرى وهي غاضبة؛ فقال «سامبا»: ستتسافرون اليوم ولن نتشاجر مرة أخرى.

قالت «ديوانا»: لكن ذلك مؤلم.

كان «سامبا» يشك بوجود علاقة سِرِّية بين الخادمة وسيدها، فقال: والسيد! .. ألا يؤلمك أيضًا؟ هيا اذهبي فهم ينادون عليك، كما أنني أسمع محرك السيارة.

غادرت «ديوانا» دون وداعٍ، ثم انطلقت السيارة في الطريق السريع فأثارت نظرات «ديوانا» إعجاب المارة لكنها لم تجرؤ على التلويح بيديها، أو الصياح قائلة: إنني في طريقي إلى فرنسا! نعم، فرنسا!

توقفت السيارة في شارع اسكارفيه أمام مقهى مشبوه مجاور لمنزلها المتواضِع، وكان بعض الزبائن جالسِين يتحدَّثون فوق الرصيف.

قال «تايف كوريا»: هل سترحلين اليوم أيتها الصغيرة؟

كانت ملابسه بالية، وقد حاول أن يتماسك وهو يزحزح قدميه ويمسك بالزجاجة من عنقها، فلم تجد «ديوانا» ما تقوله لذلك المخمور الذي عاد إلى وطنه بعد عشرين عامًا أمضاها في أوروبا .. كان «تايف كوريا» شابًّا متألقًا وطموحًا عندما رحل من بلده، لكنه عاد مُهَزَّمًا وخربًا ولا يملك شيئًا سوى حبِّه للشراب.

عندما سألَتْه «ديوانا» النصيحة أجابها بعدم جدوى سفرها، وتنبأ لها بسوء الحظ وعدم التوفيق، ثم تقدم بضع خطوات ناحية السيد وهو ممسك بالزجاجة بين يديه، وخاطبه قائلًا: هل حقًّا سترحل «ديوانا» معك؟

لم يُجِب السيد وأشعل سيجارة ظل ينفث دخانها من باب السيارة وهو يحدق في «تايف كوريا» من رأسه إلى أصابع قدميه قائلًا لنفسه: يا له من سِكِّير متشرِّد بملابس متَشحِّمة ورائحة نبيذ كريهة.

انحنى «كوريا» ووضع يديه فوق باب السيارة، ثم قال بفخر: لقد كنت هناك وعشت عشرين عامًا في فرنسا .. نعم، فأنا أعرف فرنسا أكثر مما تعرفها أنت رغم ما تراني عليه، لقد عشت في تولون أثناء الحرب، وأنا لا أريدها أن تذهب معك.

أجاب السيد بجفاف: لم يجبرها أحد على الذهاب، وإنما هي التي تريد.

– بالتأكيد لأن كل شابٍّ أفريقي يحلم بالذهاب إلى فرنسا، لكنهم سرعان ما يضيقون بالحياة هناك؛ لأنهم يعملون كخدم .. أنتم تقولون الضوء هو الذي يجذب الفراشة، لكننا هنا في بلدي «كازامانس» نقول: إن الظلام هو الذي يُغري الفراشة.

عادت «ديوانا» وحولها عدد من النسوة كُنَّ يغنين وكل واحدة منهنَّ تتوسل إليها في طلب تذكار صغير، فقالت إحداهن: تَذكَّرِي فستاني.

– وأحذية الأطفال، لقد أعطيتك المقاسات .. تَذكَّرِي أيضًا ماكينة الخياطة الأزرار الكبيرة مقاس ٤٤.

– لا تنسَي إرسال بعض النقود إلى أمك في «بوتوبا».

هكذا انهالت عليها الطلبات، وكان وجهها مشِعًّا فتناول «كوريا» الحقيبة ووضعها في السيارة بهدوء، ثم قال: اتركنَها تذهب يا بنات؛ فهل تعتقدن أن النقود تنمو فوق الأشجار في فرنسا؟ على أية حال سوف تخبركم بالكثير بعد عودتها.

ثم خاطب «ديوانا» قائلًا: وداعًا يا ابنة العم الصغيرة، اهتمِّي بنفسك، واكتبي لابن عمك في تولون فور وصولك كي يساعدك، تعالي وقبِّلِيني.

شعر السيد بالملل فأدار محرك السيارة، وفي الميناء كان الأقارب والأصدقاء أيضًا يَحُومون حولها حتى ركبَت «ديوانا» السفينة تحت رعاية السيد.

كانت حصيرة من الماء تحيط السفينة من كل اتجاه، وكان السيد في انتظارها بعد مُضِي أسبوع في عرض البحر، وبعد انتهاء الإجراءات مَضَوا في طريقهم مسرعِين.

أصابت «ديوانا» الدهشة وهي تُحدِّق في كل شيء، وأبصرت كل الأشياء جميلة؛ حتى غدت أفريقيا في نظرها قطعة أرض قذرة بالنسبة إلى ما ترى .. المدن، الأتوبيسات، القطارات، وعربات النقل.

– هل كانت الرحلة بعربات النقل؟

– نعم، سيدي، (هكذا كانت ستجيب إذا سألها السيد).

وصلوا إلى «أنتيب» بعد ساعتين داخل السيارة، ومضت الأيام والأسابيع والشهر الأول والثاني، لكن «ديوانا» لم تَعُد هي تلك الفتاة الصغيرة المَرِحة ذات الابتسامة العذبة المتدفِّقة بالحياة، بدأت عيناها تتقعران وأصبحَت نظراتها خالية من الاشتياق واليقظة، حتى إنها لم تَعُد تلحظ التفاصيل أو تهتم بها؛ فلقد أصبح لزامًا عليها أن تقوم بأعمال أكثر مما كانت تقوم به في أفريقيا؛ وهكذا لم تعرف فرنسا الجميلة، ولم ترَ شيئًا منها سوى بعض المشاهَدات السريعة كالحدائق الفرنسية، وأسوار الفيلات الأخرى، وقمم الأسطح التي يمكن رؤيتها من فوق الأشجار الخضراء.

كانت المدام عند خروجها مع السيد تقول: اهتمِّي جيدًا بالأطفال، واعملي على سعادتهم.

وكان الأطفال الأربعة يلْعَبون معها لعبة المافيا، ويتفنَّنُون في اضطهادها، حتى إن الولد الكبير صفَعها ذات مرة بعد أن سمع كثيرًا من الجمل والعبارات عن الضرر العنصري

خلال محادثات ماما وبابا والجيران العائدين من أفريقيا، كما بالغ الولد في ملاحظاته إلى أقرانه حتى أصبحوا يُغنُّون قائلِين: بنت سوداء .. بنت سوداء .. سوداء كمنتصف الليل.

تلاشت أحلام «ديوانا» القديمة وتعبت كثيرًا من العمل الشاق المتلاحِق؛ فأصبحَتْ تنام في الليل مثل الخشب لا تكاد تحس شيئًا.

امتلأ قلبها بالحقد وأصابها الملل، فأين هي فرنسا؟ وأين تلك المدن الجميلة التي تشاهدها على شاشة السينما في «داكار»؟ أين الطعام النادر وذلك الزحام المثير؟ .. لم تَعُد فرنسا بالنسبة لها سوى السيد، والمدام، وأخت المدام، وأصبحت المدينة بأسرها ليست سوى ما يحيط بالفيلا، بالإضافة إلى شعورها بالرعب من لون بشرتها الأسود الذي جعلها تتقهقر بخجلٍ داخل نفسها، كما لم تجد «ديوانا» مَن تتبادل معه الأفكار والحكايات؛ فأصبحت وحيدة تمامًا تثرثر مع نفسها.

قالت لها المدام ذات يوم: سنذهب غدًا إلى «كان»؛ أي إن أبي وأمي يرغبان في تذوق الطعام الأفريقي .. سوف تصنعين لنا يا «ديوانا» ذلك الطعام الأفريقي الجميل.

– نعم، مدام.

– أرسلت في طلب بعض الأرز ودجاجتين، يجب ألَّا تُكثري من التوابل.

«نعم، مدام .. نعم، مدام» هكذا كانت دائمًا تجيب دون زيادة أو نقصان، فقد كان قلبها متحجرًا .. كانت هذه هي إحدى المرات الكثيرة جدًّا التي تنتقل فيها من فيلا إلى أخرى، ومن منزل إلى آخر دون أن تتوقف عن عمل كل شيء وأي شيء.

– هذه المرة في منزل أبي وأمي يجب أن تتفوقي على نفسك.

– نعم، مدام.

عادت «ديوانا» للمطبخ وهي تفكر في تظاهر المدام بالطيبة والرقة؛ فسئمت كل شيء، وراحت تستعيد أيامها في «داكار» حين كانت تجمع مخلفات السيد والمدام وتذهب بها إلى منزلها في شارع «اسكارفيه» وحين كانت تتباهى بعملها مع البِيض، أما الآن فهي وحيدة تمامًا .. وحيدة وقانطة، وتشعر بالرغبة في القيء من طعامهم، ولم تَعُد تربطها بهم أية علاقة سوى تلك التي تخص طبيعة العمل.

– «ديوانا» هل ستقومين بالغسيل اليوم؟

– نعم، مدام.

– لاحظي أنك لم تقومي بتنظيف قمصاني الداخلية جيدًا في المرة السابقة، كما أنك أتلَفْت ياقات قمصان السيد؛ لأن المكواة كانت ساخنة جدًّا.

– نعم، مدام.

– أوه، نسيت أن أخبرك أن قمصان السيد وبنطلوناته القصيرة بها بعض الأزرار الناقصة.

كانت «ديوانا» تفعل كل شيء، وفجأة تقوقَعَت داخل نفسها، واختارت نوعًا من الحبس الانفرادي، وبعد لحظات طويلة من التأمل الفريد عرفت أنها ليست سوى كائن مفيد للآخرين.

كانت تسمع السيد أو المدام في الحفلات وهما يبديان ملاحظاتهما حول سيكولوجية تلك الشعوب وأبناء البلد منهم، وكانا يتخذان من «ديوانا» مثالًا فيضيف بعض الضيوف: إنها بنت سوداء ذات جراب مثل بعض الحيوانات.

بدأ الشهر الرابع، وكان كل شيء يُشير إلى الأسوأ، وراحت «ديوانا» تتساءل عن فرنسا الجميلة التي لم تعرفها حتى الآن، وتقول لنفسها: إنني أقوم بطهي الطعام، وأعمال التمريض، والغسيل، والكَي، وترتيب الحجرات مقابل ثلاثة آلاف فرنك في الشهر فقط .. إنني أخدم ستة أفراد .. ما هذا الذي أفعله هنا؟

غرقت «ديوانا» في ذكرياتها، وعقدت مقارنة بين شجيرات بلدها وتلك الشجيرات الميتة، وبين ما تراه هنا وما تراه في وطنها «كازامانس»، ثم فَقدَت تدريجيًّا كل صلة بالآخرين وأطبقت شفتيها أسفًا على اليوم الذي جاءت فيه، ومضت تسبح في شريط من الذكريات؛ حتى انهالت فوق رأسها آلاف من التفاصيل الأخرى.

ذات مساء كان السيد جالسًا يشاهد التليفزيون فطافت بشفتيها ابتسامة خفيفة وقررت التمتع بالمشاهدة، لكنها أبصرت المدام إلى جوار السيد؛ فسارعت بمغادرة الحجرة وهي تردد: باع .. باع .. اشترى .. اشترى، لقد قاموا بشرائي مقابل ثلاثة آلاف من الفرنكات .. لقد غرَّروا بي، وقيَّدوني بهم وها أنا ذا كالعبيد.

فتحت «ديوانا» حقيبتها، وألْقَت نظرة إلى الأشياء بداخلها، ثم بكَت، لكن أحدًا لم يهتم بها، وكذا لم تشأ هي أن توضِّح شيئًا عن مشاعرها للآخِرين.

اعتادت أخت المدام أن تنادي عليها دائمًا نحو مزيد من الطلبات؛ فتزداد «ديوانا» غضبًا؛ لأنها أكثر كسلًا من المدام.

– تعالي وأبعدي هذا من هنا، لديك كثير من العمل يا دونا .. لماذا لم تفعلي هذا يا دونا؟ عليك من الآن فصاعدًا أن تُجرِّفي الحديقة.

كانت «ديوانا» تجيب بنظرةٍ غاضبةٍ متعمَّدة من عينيها.

سألها السيد ذات يوم بعد أن تقدَّمَت المدام إليه بالشكوى منها: ماذا حدث لك يا «ديوانا»؟ هل أنت مريضة أو أنك تعانين شيئًا ما؟

لكن «ديوانا» لم تعد تفتح فمها.

– هل ترغبين في الذهاب إلى تولون؟ إنَّ وقتي لم يكن يسمح بذلك، لكنني غدًا سأصحبك إلى هناك.

بعد ثلاثة أيام وبعد عودة «ديوانا» من جولة السوق الصباحية اتجهت للحمَّام، وكلمات مدام «بوشيه» تخترق أذنيها: «ديوانا» .. «ديوانا»، أنت قذرة رغم كل شيء .. يجب أن تنظفي الحمام بعد الانتهاء منه.

– لست أنا مدام .. إنهم الأطفال.

– الأطفال يتمتعون بالنظافة، لكنك أنت التي سئمت منهم، ولتعرفي أنني لا أحتمل أن تكذبي مثل أولاد بلدك، فأنا لا أحب الكذابين وأنت كاذبة!

ظلت «ديوانا» صامتة لكن شفتيها كانتا ترتعشان، ثم صعدت السلالم إلى الحمَّام وخلعت ملابسها حيث وجدوها ميتة.

أعلن المحققون: حالة انتحار!

ثم حُفِظت القضية!

في اليوم التالي وفي العمود السادس من الصفحة الرابعة من الجريدة كان العنوان صغيرًا، ومن العسير ملاحظته: «فتاة أفريقية يغمرها شوق العودة إلى وطنها تقطع رقبتها في مدينة أنتيب».

المرأة المتزوجة حقًّا

أبيوسيه نيقول
سيراليون

ولد أبيوسيه نيقول في سيراليون، وتلَقَّى تعليمه في نيجيريا وإنجلترا، درس الطب في جامعات لندن وكامبريدج، وعمل سفيرًا لبلاده في الأمم المتحدة، يُلقِّبونه في دوائر الأدب الأفريقي بصانع القصة القصيرة الماهر .. نشر العديد من المقالات والقصص القصيرة في طبعات أفريقية وإنجليزية وأمريكية، وفي العام ١٩٥٢م حصل على ميدالية وجائزة مارجريت في الأدب الأفريقي.

تحرك «أجايي» قليلًا ثم نهض مُصوِّبًا بصره باتجاه الساعة الرخيصة فوق المقعد المجاور للسرير .. كانت تمام السادسة والربع، والضوء قد بدأ يتسلَّل من الخارج، كما بدأت المدينة الأفريقية في الاستيقاظ ببطء لمواجهة الحياة وبداية يوم جديد .. صاحت الدِّيَكة فنهض حراس الليل من نومهم، وراحوا يدقُّون فوق أقفال المخازن والمنازل لتأكيد وجودهم وكفاءتهم لمستخدميهم إذا ما كانوا بالقرب منهم.

كانت نساء القرية في طريقهن إلى السوق عَبْر الشوارع حاملات بضائعهن وهن يتبادلن الأحاديث.

تناول «أجايي» فنجان الشاي الصباحي الذي كان خفيفًا وحلوًا وبدون حليب كما يفضله دائمًا، ثم نهض بصعوبة نحو الشباك حيث توقف ليأخذ نفسًا عميقًا ست مرات متتالية كما يفعل كل يوم تجنبًا لمرض السُّل، وبعد ذلك مشى فوق الأرض المتداعية قاصدًا

الحوض الخارجي لتناول حمام سريع .. صب الماء فوق رأسه بعلبة كان يجرف بها الماء من الدلو، بينما كانت زوجته «آيو» — في الوقت نفسه — تُعِد له الإفطار بصعوبة.

كان يقول لأصدقائه المقرَّبين إن «آيو» سيدة طيبة .. عاشا معًا اثني عشر عامًا أنجبت له خلالها ثلاثة أطفال، وهي امرأة صبورة، وجميلة ذات عينين واسعتين، وبشرة سوداء، وأسنان ناصعة البياض، ودائمًا ما تضفر شعرها بعناية.

لجأت إليه «آيو» أول الأمر وهي ساخطة من أهلها؛ فعقد العزم على الزواج منها فور أن تبين علامات الرضا، وفي العام الأول كتبَت له عن تفاصيل احتفالات الزواج العظيمة التي تتصف بالبذخ وعن زواج صديقاتها، وأنها تتطلع إليه بعيون ملؤها الأمل، لكنه لعن ذلك البذخ وحُب التظاهر، وما هو إلا وقت قليل حتى توقَّفَت عن محاولاتها وغادرت المنزل لتعيش مع «أجايي» فانقطعت صلتها بأبيها الذي لم يتحدث إليها أبدًا، غير أن أمها ظلَّت تزورها سرًّا، ولم تنسَ أبدًا حضور طقوس تعميد أطفالها الثلاثة.

طالبت الكنيسة بمزيد من الردع لأولئك الآباء والأمهات الذين ينجبون أطفالًا غير شرعيين؛ فقررت غرامة قدرها دولاران بدلًا من خمسين سنتًا، ولم يعترض أحد؛ فقد كان القس يعظ الناس ويحرضهم بشدة ضد الفسق والزنا وتعدد الزوجات وأولئك الذين يعيشون معًا دون زواجٍ، وكان كل من «أجايي» و«آيو» من المتردِّدين على الكنيسة بانتظام، لكنهما كانا يجلسان متباعدَين، وكان الأصدقاء متعاطِفِين معهما ومع الحالات الأخرى المشابِهة.

تذمر الأعضاء الذكور من المصلِّين، وحين اجتمعوا عرفوا أن متاعب الكنيسة تتجلَّى في انحرافها عن الأخذ بتعاليم الإنجيل، وتدخُّلها في حياة الناس الخاصة، فانقطع «أجايي» عن الذهاب للكنيسة لأسابيع قليلة، لكنه عاد مرة أخرى يتردَّد عليها دون انقطاع؛ لأنه يحب التراتيل، ويعرف بينه وبين نفسه أن القس على حق.

كانت «آيو» سيدة طيبة، وكان والدها يحلم بزواجها من أحد المدرِّسِين في المدارس العليا أو أحد الصيادلة، لكنها ارتبطت بكاتب الحكومة الأقل شأنًا والذي تحبه وتشعر بسعادة معه؛ فهي تجهز له الطعام وتنجب له الأطفال، كما أنها تملك الوقت لشراء حاجاتها، وزيارة الأصدقاء، والثرثرة مع جارتها «أومو» في الباب المجاور.

مضى «أجايي» مسرعًا نحو حجرة النوم والفوطة حول خصره وراح يجفف نفسه بسرعة، ثم ارتدى بذلته القرنفلية بعناية وهو يتناول جرعة من الدواء الذي أوصى به صديقه الموظف في مخزن العقاقير.

كان «أجايي» يعتقد في أثر هذا الدواء فأصبح لزامًا عليه تناول بعض الجرعات منه؛ خاصة بعد أن قرأ النشرة وعرف أنه يجلب الشفاء لعشرين حالة مختلفة من حالات المرض إذا واظب المريض على تناوله كل يوم.

فكَّر «أجايي» في الأمراض التي يُعاني منها، أو على وشك الإصابة بها: صداع الرأس، وآلام العضلات، والضعف العام، والحُمَّى، ومرض اليرقان، والرعشة الشللية، ثم استبعد — بذكاء وشجاعة — تلك الأمراض المتعلقة بالنساء مثل الهزال العصبي، وآلام المثانة؛ ولأنه لا يتذكر وجوب تناول ما يعادل ملعقة شاي من الدواء ثلاث مرات يوميًّا كما تقول النشرة؛ فقد قرر أن يتناول جرعةً كبيرةً تُعادل المرات الثلاث. رشف رشفتين كبيرتين وكان الدواء قابضًا؛ فتغيرت ملامح وجهه، غير أنه كان راضيًا وهو يقول لنفسه: من الواضح أنه دواء جيد وقوي وإلا لما كان مرًّا هكذا.

جلس لتناول الإفطار، وراح يلتهم الذرة والعصيدة والفول المحمر والكاكاو، وسرعان ما أجهز على كل شيء، ثم توجه ناحية ابنه الكبير ذي العشرة أعوام وقام بجلده جلدات قوية؛ لأنه بلَّل فراشه الليلة الفائتة .. هرع الولد إلى الفناء الخلفي وهو يصرخ، فجاءت «آيو» وقالت: أنت تضرب هذا الولد كثيرًا.

أجاب: يجب أن يكفَّ عن التبول وهو نائم .. إنه ولد كبير، وأعتقد أنه لا يحق لأحد أن يدلني على الطريقة التي أعامل بها ابني.

قالت «آيو»: إنه أيضًا ابني.

(لم تكن تعترضه إلَّا إذا كانت تشعر بقوة ما تعترض بشأنه.)

ثم استطردَت: إن ضربه كل مرة لن يجعله يكف عن ذلك الفعل؛ ففي الحقيقة أنه يتبول الآن أكثر وأكثر، وأعتقد أنك لو توقفت عن جلده سيكون أفضل.

سأل «أجايي»: وهل أجلده ليفعلها من جديد؟

– لا.

– وهل سيكف عن التبول إذا توقفت عن ضربه؟

– إن «بيمبولا» إحدى نساء مدينتنا والعائدة توًّا من إنجلترا وأمريكا — حيث درست التمريض — أخبرَتْنا في اجتماع النساء أنه من الخطأ معاقبة الأطفال على مثل هذه الأفعال.

قال وهو يلتقط خوزة الشمس: حسنًا، سوف أرى.

ظل طوال اليوم في المكتب يفكِّر في اجتماع النساء وأشياء أخرى .. إن «آيو» تحضر اجتماعات النساء، أوه، ماذا تعرف؟ لا بد أنها تهرع بعد ذلك إلى مجلس المدينة .. يا لها

من امرأة خبيثة! إنها تنظر بهدوء ووداعة، ثم تستشهد بنظريات حديثة مما يقوله أطباء ما وراء البحار .. ابتسم بفخرٍ وقال لنفسه: إن «آيو» — في الحقيقة — شيء نافع، فقد يكون من الخطأ ضرب الولد.

قرر ألَّا يضربه مرةً ثانيةً.

قبل انتهاء العمل بقليل أرسل رئيس الكتبة في طلبه؛ فتساءل بينه وبين نفسه عن الخطأ الذي ارتكبه في ذلك اليوم، أو عن المهمة التي سيكلفونه بها، ثم أسرع إلى المكتب الأمامي؛ فإذا بثلاثة من الرجال البِيض جالسِين فوق مقاعدهم بجوار الرئيس الأفريقي الذي كان جالسًا باحترام زائد عن الحد.

بدأ قلب «أجايي» يدق بشدة، وفكر قائلًا: الشرطة! يا الله .. ماذا فعلت؟

قال الرئيس بطريقة رسمية: السيد «أجايي» هؤلاء السادة يسألون عنك.

بدأ الرجل الطويل بالقول: سعداء بلقائك يا سيد «أجايي»، نحن نمثل الاتحاد العالمي للمدافِعِين عن الإنجيل؛ أي إننا جماعة المبشِّرِين من «مينيسوتا» .. اسمي «جوناثان أولن».

تقدم «أجايي» للمصافحة، وقام الاثنان الآخران بتعريف أنفسهما.

– لقد عبَّرْت عن رغبتك في الانضمام إلينا منذ عام مضى؛ ولأننا لا ننسى فقد فكرنا — ونحن في طريقنا للهند — أن نعيد النظر بشأنك.

(قيل: إن أولئك المبشِّرِين الثلاثة كانوا في طريقهم حين توقَّفَت سفينتهم في أفريقيا لساعات قليلة من أجل التزود بالوقود).

نظر رئيس الكتبة إلى «أجايي» باحترام غير عادي، بينما كان «أجايي» يحاول جاهدًا أن يتذكر الصلة التي تربطه بجماعة المبشِّرِين هذه، وما هي إلا لحظات قليلة حتى تذكر فجأة أنه قد حصل منذ مدة طويلة على مجلة من شخص ما يعمل في هيئة الاستعلامات الأمريكية وقطع منها قسيمة، ثم أرسلها إلى جماعة المبشِّرِين سائلًا إياهم عن بعض المعلومات، وتمنى لو أرسلوا له بعض الأناجيل المزَيَّنة بالصور؛ إذ يمكنه أن يقدِّمها هدية أو يقوم ببيعها، كما تَمنَّى أن يرسلوا له — على الأقل — تلك الصور الكبيرة ذات الإطارات ليزين بها الردهة أو يلصقها فوق حائط حجرة النوم، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث؛ فنسى الموضوع تمامًا.

قام بدعوتهم إلى منزله بصحبة الرئيس لتناول شراب بارد، فوافقوا جميعًا، ثم قال محذرًا: إن منزلي متواضع.

أجاب «أولسن»: ليس متواضعًا، إنه مضيء بحب المسيحية.

قال رئيس الكتبة بجفاف: إنه كذلك بالفعل .. فلتطمئنوا.

اقترح «أولسن» أن يذهبوا بالسيارة، لكن «أجايي» اعترض بلباقة، وقال: إن الطريق غير ممهدة.

ثم همس بسرعة لأحد الكَتبة التابعين له أن يسرع بالذهاب إلى المنزل على الدراجة لإخبار «آيو» أنه قادم مع بعض الرجال البِيض خلال نصف ساعة، وعليها أن تقوم بتنظيف المنزل وتجهيز عصير الفاكهة.

ارتبكت «آيو» لمضمون الرسالة؛ فهي تعرف عن يقين أن كل الرجال البِيض لا يشربون سوى الويسكي والبيرة المثلجة، لكن الرسول أزاح عنها ارتباكها حين أخبرها أنهم نوع من الناس لا تربطهم أية صداقة، وتبدو على هيئتهم مظاهر التقوى والورع؛ مما جعله يشك أنهم جماعة من المُبشِّرين، وكان سيرهم على الأقدام بدلًا من ركوب السيارة هو ما أكد لديه هذا الإحساس .. فهِمَت «آيو» وبدأت على الفور في العمل.

كان «أوجو» قد انتهى من فضيحة التبول الصباحية، فوضعت «آيو» السلة فوق رأسه وأرسلته لشراء بعض المشروبات الخفيفة، ثم راحت تنظِّف الحائط، وتنزع الرزنامة المليئة بالصور، وتُثبِّت صور الأُسرة التي سقطت فوق المائدة، وتذكرت ضرورة أن تُبعد عن مرمى النظر تلك الروايات الغريبة، والمجلات الرومانسية التي تملأ الصالة، وحرصت على إظهار نشرة الحج، وكتاب الصلاة، وهي تفكر أن ذلك يضيف قدرًا من الثقافة ذا لمحة دينية إلى الديكور .. تذكَّرت كئوس الخمر ومفارش إعلانات البيرة، فسارعت بإخفائها تحت الأريكة، وفكَّرت أنه الوقت المناسب لارتداء فستان يوم الأحد، وعندما يصل «أجايي» والضيوف يمكنها استعارة خاتم الزفاف من جارتها.

لم يستطع رئيس الكتبة إخفاء دهشته عندما شاهد ذلك التغيير في الحجرة التي زارها من قبل، ولما أبصر فستان «آيو» وخاتمها حاول إخفاء شعوره بسرعة .. تقدمت «آيو» وتعرَّفَت عليهم، ثم تَبادلوا حديثًا قليلًا بالإنجليزية؛ مما بعث السرور في نفس «أجايي» .. ارتدى الأطفال ثياب يوم الأحد، وكانت وجوههم نظيفة وشعورهم مصفَّفة؛ فشعر «أولسن» بالسرور، وأصرَّ على التقاط بعض الصور لصحيفة التبشير.

كانت «آيو» تُقدِّم الشراب ثم تتراجع بتواضع تاركة الرجال يتناقشون في الأمور المهمة، وكان «أولسن» يَتحدَّث بحماس عن القدوم الوشيك للمسيح الثاني، وعن محاولة تقديم «أجايي» وتعيينه في الكنيسة.

انتهت الزيارة وسارَع المبشِّرون بالرحيل للحاق بسفينتهم، وبعد ذلك تَوقَّف الرئيس عن توجيه الأوامر إلى «أجايي»، والتي كانت تزداد مع الوقت.

في اليوم التالي توجه «أجايي» إلى مكتب الرئيس حاملًا بين يديه زجاجة من البيرة كهدية لمساعدة الرئيس له في هذه المناسبة، خاصة وأنهما تناقشَا بودٍّ وفي جوٍّ من التكافؤ؛ حتى إنهما أثارا اهتمام الرجال البِيض.

بعد ذلك الحدث واحتجاج «آيو» على ضرب الولد ظل يفكر بجدِّية طوال أسبوع كامل، ثم قرر في النهاية أن يتزوج «آيو»، وكانت الصور التي التقطها «أولسن» لمجلته عاملًا مساعدًا في اتخاذ قراره .. يجب أن يتزوج «آيو» فقد أكد له «أولسن» أن ملايين من الأمريكيين سيشاهدون صورهم باعتبارهم أسرة أفريقية سعيدة.

ذات مساء وبعد تناول عشاء جيد انتهز «أجايي» فرصة من الصفاء والرضا والهدوء، فأخبر «آيو» بعزمه على الزواج منها، لكن «آيو» اضطربت في الحال ونظرت إليه بقلق وهي تتساءل: هل يعاني من مرض ما؟ هل ثمة متاعب في العمل، أو أن أحدًا قد تسبب في إهانته؟!

هكذا سألتْ نفسها ثم أجابتْ: لا، لا شيء فليس ثمة خطأ في أن يطلب الزواج.

ثم ضحكتْ وقالت له: كما تشاء، فلنتزوج ولكن لا تقل إنني أجبرتك على ذلك.

تناقشَا في شئون العرس، واقترح «أجايي» فستانًا أبيض للزفاف وحجابًا وزهرة برتقالية، لكن «آيو» اعترضت، وتم الاتفاق أخيرًا على اللون الرمادي، كما اقترحت ضرورة أن ترتدي مشدًّا للوسط كي تداري وتطوق تلك البدانة عند الوسط؛ فوافق «أجايي» على طلبها وربَّت فوق ذقنها بلطف قائلًا: أنت امرأة مَزهوَّة بنفسها.

لم يكن قادرًا على مجرَّد التفكير في شهر العسل بتكاليفه الباهظة، كما تسببت فكرة النفقة في تعكير صفوه؛ فقال لها: إن هذا السرير بحالة جيدة ومثله مثل أي سرير جديد. استسلمت «آيو» موافقة.

ظل «أجايي» طيلة ذلك المساء لا يفكر في شيء سوى فكرة الزواج وإجراءات الزفاف، وبينما كانا راقدَيْن فوق السرير انتابته رغبة ملحة في ممارسة الحب معها؛ فراح يداعبها ويُقبِّلها، لكن «آيو» دفعته إلى الخلف برقة وقالت: لا .. انتظر بعد الزواج.

قبل «أجايي» رغبتها رغم اندهاشه، ثم سألها: لماذا؟

أجابت «آيو» بحدة وتصميم: لأنه مهما كان الأمر فلن يكون ذلك صحيحًا.

سمع والد «آيو» بفكرة الزواج، لكنه لم يتراجع عن رأيه وإنما ازداد إصرارًا على مقاطعتها قائلًا: حتى لو عادت بكل ممتلكاتها.

ذهب الأطفال إلى أخت «آيو» المتزوجة، وكانت أسرة «أجايي» فرحة بذلك القرار ما عدا أخته التي لم توافق إلا من أجل تحسين وضعه الاجتماعي، لكنها نصحته أن يذهب أولًا

للعرَّاف كما فعلت «آيو» حين تناقشت مع الأصدقاء في سوق يوم السبت وذهبت للعرَّاف، ثم اتخذت قرارها.

في الليل ذهب «أجايي» مع أخته إلى العرَّاف الذي كان مشغولًا بالتكهن بالغيب، وإيحاء زوَّاره بالسعادة والمستقبل المشرق.

كان كل شيء موفقًا بالنسبة إلى «آيو» باستثناء جارتها «أومو» التي كانت تُعِيرها — دائمًا — خاتم الزفاف في المناسبات المهمة، والتي تشعر الآن تجاهها بالبرود بعد أن عرفت بهدايا الزفاف التي ينوي «أجايي» أن يقدمها لها، حتى إنها قدمت لها قمصان النايلون المهلهَلة بإحساسٍ ممتزجٍ بالحسد والغضب وهي تسألها: هل يعني ذلك أنك سترتدين هذه القمصان؟

أجابت «آيو» ببساطة: نعم.

اعترضت «أومو» قائلة: لكن البرد سيصيبك إذا ما ارتديت هذه القمصان يا أختي كما لو أنك أصبت في حادثة، وقام الأطباء برفع ملابسك في المستشفى فلا شك أنهم سيشاهدون كل شيء.

قالت «آيو»: لن تصيبني حادثة.

ثم أضافت: يقول «أجايي»: إن ممثلات السينما في هوليود يرتدين مثلها .. انظري، هوليود ماركة مسجلة.

قالت الجارة الغيور وهي تلقي بالملابس إلى الخلف في غضب: إن ذلك شيء فاضح، إنه لا يُخفي أي شيء، ومن الفجور الشديد ارتداء مثل هذه الملابس.

شعرت «آيو» بالانتصار فقالت بهدوء: ولماذا ينبغي إخفاء مفاتني عن زوجي؟

عادت «آيو» إلى المطبخ وهي سعيدة لزواج «أجايي» منها، وكان ينتابها شعور قوي بمستقبل آمن.

حاول «أجايي» — بصعوبة — أن يتخلص من روتينه اليومي وبخاصة فنجان الشاي الصباحي الذي افتقده كثيرًا، كما استدان كثيرًا من الأموال من أجل المهر، وتكاليف الموسيقى الراقصة، ومراسم الاحتفال، وفساتين «آيو» وقريباتها التي يجب ارتداؤها بعد الانتهاء من مراسم الزفاف، وكان على «آيو» أن تسرع بتجهيز نفسها والانتهاء من مَشدَّات الوسط.

ذهب عم «أجايي» وبعض أقربائه إلى والد «آيو» حاملِين معهم الكتاب المقدس، وخاتم الخطوبة طالبِين يدها للزواج، وهكذا تمت الخطوبة في هدوء، وفي اليوم السابق

ليوم الزفاف اصطحبوا معهم فتاتين صغيرتين فوق رأسيهما زجاجات كبيرة مجوفة بداخلها بعض الدبابيس والعملات الإنجليزية الصغيرة والفاكهة وبذور الكولا، والفستان كهدية رمزية من العريس إلى العروس تجنبًا لأي نزاع في المستقبل يمكن أن يقال فيه: لم يقدم لي هذا الوغد منذ زواجنا دبابيس أو عملات.

اقترب الموكب الصغير من منزل والد «آيو» ولعدم تأكدهم منه فقد تجاوزوه، ثم عادوا إليه مرة أخرى .. طرق عم «أجايي» الباب عدة طرقات فانطلقت الأصوات صائحة من الداخل مطالبة بالاسم واسم الجد والمهمة التي جاء من أجلها؛ فتبادل الجانبان الشتائم، وبعد أن تفحصوا أوراق الأسرة بدقة ساورت الشكوك كلا الجانبين، ثم بدأ عم «أجايي» في التملق والمداهنة وكانت نصف ساعة من المتعة والدهشة والانتظار فتح بعدها والد «آيو» الباب وسأل متجهمًا: أية مهمة جئت من أجلها؟

أجاب عم «أجايي» بهدوء وتواضع: جئنا لكي نقطف الوردة الحمراء التي تنمو في حديقتك الجميلة والتي لم يقطفها أحد من قبل .. إنها أجمل من أية وردة أخرى.

سأل أحد أقرباء «آيو» الذكور: هل تستطيعون تهذيب وردتنا الجميلة؟

أجابت أسرة «أجايي»: سوف نحسن تهذيب وردتكم الجميلة.

اتفق الجميع وراحوا يتبادلون الهدايا، ويتناولون الشراب، ويقيمون الصلوات، ثم بدءوا يتناقشون حوالي نصف الساعة حول ما يمكن تصوره، وما يمكن أن يفعلوه لإنهاء كل شيء على أكمل وجه.

كانت «آيو» وأخواتها البنات وبعض قريباتها الشابات يختبئن في حجرة النوم المجاورة حين قال والدها مخاطبًا عم «أجايي»: في هذا المنزل توجد فتاة عذراء طاهرة، وهي جميلة ومطيعة ومعروفة لدى الجميع باسم «آيو»، وأنت تبحث عن هذه الفتاة العذراء لتصبح زوجة لقريبك «أجايي».

ثم فتح باب حجرة النوم وجاء بأخت «آيو» الرابعة وقال: هل هي هذه؟

أجابوا بعد أن تفحصوها جيدًا: لا، ليست هي .. إنها أقصر من «آيو».

جاءت بنت العم فقال والد «آيو»: هل هي هذه؟

– لا، هذه بدينة جدًّا.

شاهدوا عشر فتيات غير أن واحدة منهن لم تكن هي المطلوبة فهذه قصيرة جدًّا وبدينة جدًّا أو متوسطة جدًّا؛ مما جعل عم «أجايي» يضرب فوق فخذه وقد تأكد من شكوكه؛ وعندئذٍ سارع إلى مجموعته وأخبرهم بضرورة أن يشاهدوا العروس بأنفسهم فأشاروا برءوسهم موافِقين.

قال والد «آيو»: حسنًا، ليس ثمة ما يدعو للقلق .. كنت أبغي التأكد من أنكم تعرفون ما تريدون.

ثم وقف أمام باب حجرة النوم في مواجهة الجميع وأشار إلى «آيو» الجالسة فوق السرير، وكان من اليسير رؤية الدموع المتدفِّقة من عينيه، قبَّلها برقة فوق جبهتها؛ كي تصفح عنه لمقاطعتها كل تلك السنوات، ثم أمسك يدها وقادها متَّجهًا صَوْب الحاضرين، وقال: هل هذه هي الفتاة التي تريدونها؟

أجاب عم «أجايي» بفرح: نعم، هي بالتأكيد.

وعندئذٍ راح الجميع يصيحون: «هيب .. هيب .. هوراي».

أحاطوا «آيو» من كل اتجاه، وظلوا يلوحون بالمناديل البيضاء فوق رأسها، وتناول الموسيقيون قيثاراتهم، ثم بدءوا في العزف، بينما راح شخص ما يصدر أنغامًا متناسقة بزجاجة خمر فارغة، وبعد الانتهاء من الزغاريد التمهيدية ارتفع صوت الفلوت بلحنٍ عذبٍ؛ فسارع الجميع بالرقص حول «آيو» حتى أصبحت في المنتصف تمامًا .. ها هي «آيو» في منتصف الثلاثينيات من عمرها بشعرها المخطط باللون الرمادي تشهد مراسم الحفاوة والتكريم الخاصة بها، تلك الاحتفالات التي غالبًا ما شهدت عليها دون أن تكون طرفًا فيها .. راحت تبكي بفرح.

في الصباح التالي كانت تستحِم بمساعدة امرأة عجوز من أفراد أسرتها، وبعد أن ارتدت ملابسها أمام أمها سارع أبوها بزفها إلى الكنيسة .. كان زفافًا هادئًا يتكون من ستين ضيفًا أو نحو ذلك، وقد بدا «أجايي» متماسكًا في سترته المليئة بالأزرار والتي كان يرتديها فقط في المناسبات الخاصة .. اتجهوا بعد ذلك إلى منزل أسرة «آيو» لتناول غذاء الزفاف، وعند الباب التقوا بواحدة أخرى من عمات «آيو» العجائز التي كانت تمسك كوبًا من الماء أشارت به إلى شفاههم ليرشفوا منه على التوالي على أن يكون «أجايي» أولهم .. تجمَّع الضيوف في الخارج خلف الزوجين فيما كانت العمة تلقي خطابًا طويلًا بطريقة مرحة، وقالت محذرة «آيو»: ليس من الصواب أن تكوني لطيفة جدًّا مع النساء الأخريات حين يلاطفن زوجك، ويجب أن تَعيشَا في سلامٍ وألا تجعَلا الشمس تغرب بينكما حين ينشأ خلاف ما.

أضافت العمة مخاطبة «أجايي» بومضة سريعة من عينيها: بإمكان الزوجة أن تكون هادئة ومسلية وسيدة، وأتمنى ألا تستخدم العنف مع ابنتنا التي هي زوجتك.

اتخَذوا من الجانب الغربي مكانًا لممارسة طقوس الاحتفال، وراحوا يقطعون كعكة الزفاف التي صنعتها «آيو» بنفسها، وبدأ كل منهم يلقي خطابًا، ثم رحل «أجايي» إلى

منزله حيث كان في انتظاره حفل آخر؛ فقام بتغيير ملابسه ببذلة أخرى طويلة وسارع باستدعاء «آيو» التي رحَّبَت بالاستدعاء، غير أن أهلها بدءوا في البكاء؛ لأنها ذاهبة في رحلة طويلة، وكان من اليسير رؤية الدموع في عيني أمها، وهي تقول: وداعًا؛ خاصة وأنها لن تشهد شرف عذرية ابنتها في اليوم التالي.

عادا إلى منزلهما في النهاية بعد أن ظلَّا يتنقلان بين الأقارب من الأسرتين؛ فبدت «آيو» مختلفة في عين «أجايي»؛ إذ لم يكن ينظر إليها بإمعان من قبل، لاحظ أن رأسها منتصبة برشاقة، وأن رقبتها ذات الأخاديد الثلاثة الطبيعية الأفقية بجمالها الكلاسيكي ليست سوى نموذجًا رائعًا من نماذج الجمال، وكذلك كتفاها الرقيقان؛ فقام باحتضانها برقة لم يعهدها من قبل.

في صباح اليوم التالي نهض «أجايي» متأخرًا على غير العادة، ثم راح ينظر حوله بحثًا عن فنجان الشاي، لكنه لم يجده؛ فقفز من مكانه وراح ينظر في كل اتجاه دون أن يرى شيئًا، أرهف السمع بحثًا عن خطوات «آيو» في المطبخ، لكنه أيضًا لم يسمع شيئًا وحين نظر إلى جواره كانت «آيو» راقدة وقد أثار ظهرها الأبنوسي المكشوف رجولته ففكر قائلًا لنفسه: ربما تكون مريضة فلقد أرهقتها أحداث الليلة الماضية.

هتف قائلًا: «آيو» .. «آيو» .. هل أنت مريضة؟

استدارت بجسدها في بطء حتى أصبحت في مواجهته، ثم قرصت إصبع قدمها في دلالٍ وكبرياء تحت الغطاء القطني، وربتت فوق نهديها بنعومةٍ وبطءٍ، وأجابت بهدوء يثير الدهشة والفزع: لا، «أجايي»، لست مريضة.

ثم سألته: هل أنت كذلك؟

وأضافت: هل قدماك مشلولتان؟

ارتبك كثيرًا وفكر أن عقلها أيضًا قد أصابه التشوش من كثرة الإجهاد فأجابها قائلًا: لا.

قالت: «أجايي»، أنت زوجي منذ اثني عشر عامًا، وأنا أستيقظ كل صباح في الخامسة؛ كي أصنع لك الشاي والإفطار؛ لكنني الآن امرأة متزوجة حقًّا؛ فيجب أن تعاملني بمزيد من الاحترام؛ إذ إنك الآن زوج ولستَ عاشقًا، هيا انهض إذن واصنع لنفسك كوبًا من الشاي.

الفائز

باربارا كيمني
أوغندا

كاتبة صحفية معروفة في شرق أفريقيا وهي أوغندية الأصل .. أصدرت مجموعتين قصصيتين في العام ١٩٨٥م.

أصبح «بيوس داولا» أكثر الناس شعبية في «بوجندا» بعد أن فاز برهان كرة القدم حيث تدفق الأقرباء نحوه من جهات المملكة الأربع .. أولاد العم، وأبناء الإخوة والأخوات، والأعمام .. كلهم جاءوا فجأة إلى «كالاسندا» — رغم عدم حضورهم من قبل للسؤال عنه — وراحوا يفكرون في استثمار أموال الجائزة لأعمالهم الخاصة.

حول كوخ «بيوس» الطيني المتواضع كان الصحفيون متربصين، وبعضهم يحمل آلات التصوير، بينما توقَّف العاملون بإذاعة أوغندا لتسجيل سرور وفرحة «بيوس» وحظه المدهش في محاولة للترفيه عن المستمعِين.

لم يكن «بيوس» يغادر كوخه إلا نادرًا، وكان يتحرك مستندًا على عصا قوية وهو يترنح ويتمايل مثل رجل أعمى أو أعرج، وعند رؤيته كان ينتاب القرية إحساس بأنه لم يغادر القرية منذ سنوات، كما لم يكن من السهل التعرف عليه.

عندما بدأت آلات التصوير عملها جاهدت «مانتوندو» لتجلس إلى جوار «بيوس»، وفي صباح اليوم التالي كانت كل صحف أوغندا تنشر في الصفحة الأولى صورة السيد «بيوس»

وزوجته السعيدة .. تفرست «مانتوندو» الصورة بفرح وراحت تطوف بها على كل الزوار، وقد تملَّكها إحساس شديد بالفخر.

– أخبِرنا يا سيد «داولا» ماذا ستفعل بكل هذه النقود التي ربحتَها؟

– أخبِرنا يا سيد «داولا» كيف كنت تملأ كوبونات الرهان؟

– أخبِرنا .. أخبِرنا .. أخبِرنا.

كادت رأس «بيوس» أن تنفجر من تلك الأسئلة الكثيرة، وكان «سالونجو» وكيل مقبرة «سابالانجيرا» وصديقه الوحيد يهمس له بألَّا يقول شيئًا في الوقت نفسه الذي كان فيه الأقرباء يصيحون ويدفعون ناحيته بأطفالهم؛ مما أصابه بالاضطراب وعدم القدرة على التفكير؛ إذ لم يكن من اليسير أن يتحوَّل فجأة من عالم النسيان والتجاهل الكامل طوال خمسة وستين عامًا إلى عالم الشهرة.

لم يكن «بيوس» يملك مطبخًا نظيفًا؛ فراحوا يصنعون الشاي في الأباريق خلف الكوخ، بينما عدد كبير من بنات العم كنَّ يعملن بجدٍّ ونشاط في إعداد عناقيد الماتوك لتجهيز الطعام لكل شخص.

قدمت إحدى النساء نفسها على أنها ابنة عم «سارا»، وكانت تصيح وتتحرك بحرية تامة حتى إنها اكتشفت الموز المخبأ وقدمته للحاضرين في أطباق، لكن «بيوس» لم تعجبه طريقتها تلك وحدثته نفسه بأن يحذر منها كما قال له «سالونجو» منبهًا: يجب مراقبتها!

انتشر الخبر بسرعة في أفريقيا قبل أن تصل البرقية إلى «بيوس» فالصحافة على اتصال دائم بمكاتب الرهان .. توافدت أفواج الزائرين لرؤية «بيوس» والاطلاع على البرقية التي تفيد بفوزه، لكنه كان غارقًا في أفكاره الخاصة المتمثلة في عجزه عن إدراك ما يحدث حوله؛ حيث إنه قد افتقد رؤية كثير من أولئك الناس منذ سنوات كثيرة؛ حتى إنه كان يتعرف عليهم بصعوبة.

كانت العائلة تنعم بالسرور، وكان الجميع من حوله يهتف بفرح: ابن العم «بيوس» .. ابن العم «بيوس».

قال بعضهم: «بيوس» يا ابن العم، لماذا لم تأتِ لزيارتنا كل هذا الوقت؟

شعر «بيوس» بالسرور لرؤية أقربائه وأحبابه وهم يتجمعون حوله، فها هو يجد نفسه وسط عائلته من جديد .. لقد ملئوا قلبه العجوز بالدفء؛ فراح يرحب بهم كثيرًا غير أن ثمة جمودًا واضحًا كان باديًا عند البعض منهم.

أصبح المنزل مليئًا بالناس ودخان السجائر، وظلت البرقية الثمينة تنتقل من يد إلى أخرى.

قال الرجل الصغير: والآن يا سيد «داولا» نحن مستعدون. للتسجيل، سوف أسألك بعضًا من الأسئلة، وعليك أن تجيب ببساطة وبصوتك الطبيعي وطريقتك العادية.

نظر «بيوس» إلى الصندوق الجلدي ذي البكرتين الدائرتين، ثم لعق شفتيه دون أن يقول شيئًا.

همس «سالونجو» بصوت أجش، لكن الرجل الصغير لم ينتبه له وتوَجَّه إلى «بيوس» قائلًا: سيد «داولا»، أهنئك — قبل كل شيء — على فوزك بالرهان والآن أخبِرنا عن شعورك عندما أصبحت غنيًّا فجأة.

كان «بيوس» يحدق في الفراغ وكأنه تحت تأثير التنويم المغناطيسي؛ مما جعل الرجل الصغير يسأله مرة أخرى: أعني .. هل لديك خطط للمستقبل؟

ابتلع «بيوس» ريقه بصوت مسموع، ثم فتح فمه ليقول شيئًا لكنه سرعان ما أغلقه عندما اعترض «سالونجو» قائلًا: لا تخبره بأي شيء.

أدار الرجل الصغير آلة التسجيل وهزَّ رأسه بغضب وهو يقول: انظر هنا يا سيدي، كل ما أريده أن تقول شيئًا فأنا لا أسألك أن تُلقي خطابًا، والآن سأشرح لك .. سوف أسألك عن شعورك عندما أصبحت غنيًّا فجأة، فتجيب مثلًا، وتقول بأنها كانت مفاجأة مدهشة وإنك — بطبيعة الحال — تشعر بالابتهاج .. والآن هل تطلب من أصدقائك عدم المقاطعة؟

دارت الآلة مرة ثانية وكان السؤال واضحًا: سيد «داولا»، ما هو شعورك بالفوز؟

أجاب «بيوس»: إنها مفاجأة مدهشة، وبطبيعة الحال فإنني أشعر بالابتهاج، وهل تطلب من أصدقائك عدم المقاطعة!

كاد الرجل أن يبكي فقد كانت أول أيام عمله كمقدم للبرامج الإذاعية وأصبح واضحًا أنها آخر أيامه؛ فسارع بإغلاق آلة التسجيل، وانتابه الحزن على مستقبله، ثم راح يتأوه.

كانت «سارا» تراقب ما يحدث فانتهزت الفرصة، وقالت: ربما أستطيع مساعدتك، إنني بنت عم «بيوس».

قالت ذلك بطريقة توحي بأن «بيوس» ليس له أحد آخر غيرها؛ فأشرق وجه الرجل الصغير، وقال: حسنًا مدام، سأكون مُمتنًّا إذا استطعت أن تخبريني شيئًا عن خطط السيد «داولا».

أطبقت «سارا» ذراعيها أمام وجهها المهيب، عندما بدأت الآلة في التسجيل قالت: نعم، إن السيد «داولا» سعيد جدًّا بالنقود، ولا أعتقد أن لديه خططًا محددة في كيفية استثمارها؛ لأنه — ببساطة — لا يستطيع أن يفكر وسط كل هؤلاء الناس .. نعم، إن السيد «داولا» يعيش وحيدًا وأنا التي أجيء من وقت لآخر للعناية به ومساعدته.

نظرت النسوة الأخريات إلى بعضهنَّ نظرات تعني الكثير، ورحن يطرقعن أسنانهنَّ في الحجرة، وظل «بيوس» يتعجب من تلك الثقة التي تتحدث بها، بينما دفعه «سالونجو» برفق وهمس له: هل تتذكر ما قلته لك؟ يجب مراقبتها، احترس منها.

في الثالثة من بعد الظهر تم إعداد الشاي وبعض أوراق موز الجنة وثلاثة أطباق مختلفة، فتناول «بيوس» قليلًا من الطعام وراح يستمتع بالشاي .. كان البعض يتناول الشاي في علب من الصفيح أو في قوارير قديمة لعدم وجود عددٍ كافٍ من الفناجين .. شعر «بيوس» بألم في ذراعه من كثرة المصافحة وأصابه التعب من الثرثرة، وكل أولئك القادمين والذاهبين، وبلغت متاعبه أقصاها من بنت العم «سارا» التي كانت تعامله كضعيف معتوه دون أن تتوقف عن محاولاتها في إبعاد الآخرين.

مع بداية المساء بدأ الأقرباء في الرحيل مع وعد بالحضور غدًا، وأثناء ذلك جاء كل من «يوسيفو موكاسا» و«كيبوكا» فأبصرا ذلك الإجهاد الواضح فوق وجه «بيوس» العجوز الذي كان منهَكًا، وفوق بشرته الرمادية تتجلى بوضوح علامات الإرهاق الشديد .. تراجع كِلا الرجلين إلى الخلف عندما تقدمت بنت العم «سارا» التي أجبرتهما على تناول الشاي، والتي كانت تتصرف باحترام بالغ يُوحي بأنها سيدة البيت.

خاطبت «يوسيفو» قائلة: أعتقد أن زوجي الأخير يعرفك جيدًا يا سيدي، إنه «كيفومبي» الذي كان رئيس الميروكا في مقاطعة «بوياجا».

أجاب «يوسيفو»: آه، نعم .. لقد تذكرت «كيفومبي» جيدًا، كنا نصطاد معًا على الدوام، ولقد تأثرت جدًّا بنبأ وفاته .. كان رجلًا طيبًا.

هزَّت «سارا» كتفيها، وقالت: نعم، كان رجلًا طيبًا، وإنما هكذا هي الحياة .. لقد رحل بعيدًا.

استطاع «بيوس» عندئذٍ أن يعرف صلة القرابة بينه وبين «سارا» التي لم يكن لها في الحقيقة وجود؛ حيث إن «كيفومبي» هو ابن لزوجة أحد أبناء عم «بيوس».

علَّق «كيبوكا»: يبدو أن خبطة الحظ هذه قد أرهقتك يا «بيوس»!

كان «كيبوكا» و«يوسيفو» جالسَين فوق المقاعد الخشبية التي أحضرتها «سارا»، أما «سالونجو» فقد كان يُحدِّق في كل شيء وهو يجيب: بالطبع هو مرهق للغاية؛ لأنهم جميعًا يرغبون في تجميع عظامه.

دفعه «بيوس» كما يدفع طفلًا: لا، لا، «سالونجو» .. إنه لمن الطبيعي أن تتجمع العائلة حولي في مثل هذا الوقت، وأنا لست منزعجًا إلا أنني عجوز بعض الشيء ولا أقدر على مثل هذه الإثارة.

بصق «سالونجو» باتجاه المدخل المفتوح بعيدًا عن مجموعة الضيوف، وقال: هذه المرأة لا تدري أنه رجل عجوز وتريد الإمساك به .. لقد رأيت مثلها في مكان آخر.

تعجب «يوسيفو» .. مكان آخر! هذا يعني مقبرة «سابالانجيرا» التي كان يحرسها «سالونجو» في سنوات شبابه.

ثم قال: حسنًا، إنها امرأة طيبة .. أرجوك يا «بيوس» أن تفهمني، من الأفضل أن تقضي معنا هذي الليلة في «موتوندا» وسوف تسعد «ميريامو» كثيرًا لوجودك معنا، كما أنك في حاجة لقضاء ليلة طيبة ومريحة لن تتوفر لك هنا؛ حيث الأقرباء يعدُّون أنفسهم بالخارج لإشعال النار استعدادًا للرقص طوال الليل.

قالت «سارا» وهي تزيح فناجين الشاي: أعتقد أنها فكرة جيدة فلتذهب يا ابن العم مع السيد «موكاسا» حتى تنعم بوضع أفضل، ولا تقلق بشأن منزلك؛ لأنني سأبقى هنا وأعتني بكل شيء.

تردد «بيوس» قائلًا: نعم، ذلك شيء طيب غير أنني سأكون بخير هنا على ما أعتقد، كما أنني لا أرغب في إلقاء مزيد من الأعباء فوق كاهل «ميريامو».

قال له «سالونجو» هامسًا: اذهب مع «يوسيفو»؛ فمن الخطأ أن تبقى وحيدًا مع هذه المرأة التي لا نعرف شيئًا عما يمكن أن تفعله.

صوبت «سارا» نظرات عنيفة نحو «سالونجو» وقبل أن يتفوه أحد بشيء آخر قالت بطريقة نهائية: سأحزم لك بعض الأشياء القليلة يا «بيوس».

استقلُّوا سيارة «يوسيفو» ومضَوا في طريقهم نحو «موتوندا»؛ فانتاب «بيوس» إحساس غامر بالسرور والابتهاج؛ لأن أحدًا لن يضايقه، بينما ذهب «سالونجو» إلى المقبرة وابتسامة غير منتظمة كانت تطفو فوق وجهه الذابل العجوز وهو يتذكر وعد «بيوس» له بالمساعدة في بناء منزل جديد للسابالانجيرا، وأنه كان يومًا جميلًا بالنسبة له بالرغم من بنت العم «سارا».

أمضى «بيوس» مساءً ممتعًا مع «الموكاساس» الذين أجادوا صنع العشاء، والذي أعقبه كوب من البيرة المثلجة .. كانوا جالسِين يستمعون إلى الأخبار المحلية من الراديو، وكان «بيوس» في حالة من الاسترخاء حين أخبرهم — بتواضع — أن لقاء قد تم بينه وبين راديو أوغندا هذا الصباح، فراحوا ينصتون بشغف إلى نشرة الأخبار لسماع صوته، لكنه كان صوت «سارا» عبر الأثير .. كان الرجل العجوز قد نسي تمامًا واقعة التسجيل مثلما نسي «سارا»، لكنهم اقتربوا منه وهم خائفون، وقالوا: إن «سالونجو» على حق؛ فتلك المرأة تبغي الاستفادة منك ويجب معرفة ما وراءها.

كانت الفكرة تبعث على القلق لكن «بيوس» نام كالطفل وكأن لا شيء في العالم يهمه، وفي الصباح شعر بالانتعاش فأصرَّت «ميريامو» على بقائه يومًا آخر في «موتوندا» وقالت له: لقد فرحت بالأمس حين رأيتك وها أنت تبدو في وضع أحسن مما جئت عليه؛ ومن هنا أرى أن قضاء إجازة صغيرة معنا سيجعلك أفضل كثيرًا .. يمكنك الذهاب إلى منزلك غدًا حين يكون بعض أقربائك قد رحلوا؛ فيصير الزحام أقل مما هو عليه الآن.

بعد الغذاء مباشرة توجه «بيوس» إلى الشُّرْفة وراح يغفو قليلًا فوق الكرسي وما هي إلا لحظات قليلة حتى جاء «موسيسي» في السيارة اللاندروفر وكانت «سارا» إلى جواره فتقدمت «ميريامو» لتحيتهما، وقد بذلت جهدًا كبيرًا في التنكُّر لفضولها تجاه هذه المرأة التي سمعت عنها كثيرًا، ثم جلست إلى جوارها وقررت كل منهما أن تصبح صديقة للأخرى.

اقترب «موسيسي» في اللحظة نفسها من العجوز «بيوس» الذي أشار له إلى المقعد قائلًا: اجلس يا بني، لقد أطعمتني «ميريامو» جيدًا وها أنا ذا يقظ وفي أحسن حال.

قال «موسيسي» وهو يتلمس جيب سترته: وأنا سعيد لراحتك يا سيدي، لكنني أحمل برقية لك فهل أقرأها؟

وقف الرجل العجوز مترقبًا، وقال: سأكون ممتنًا إذا فعلت.

قرأ «موسيسي» البرقية في صمتٍ، ثم نظر إلى «بيوس» وقال معلقًا: أخشى أن تكون أخبارًا سيئة يا سيدي.

ردَّ «بيوس»: أخبار سيئة؟ هل مات أحد؟

ابتسم «موسيسي» وأجاب: لا، ليست بهذا السوء وإنما كل ما في الأمر أن شركة الرهان نسيت أن تضيف إلى البرقية الأولى أن الجائزة موزعة على ثلاثمائة شخص آخر.

أصابت «بيوس» الدهشة، وفقد توازنه، ثم تمتم: أخبرني، كم من النقود سوف أحصل عليها؟

– سبعة عشر ألفًا من الجنيهات موزعة على ثلاثمائة شخص يعني أنك ستحصل على أكثر من ألف شلن.

تعجب «موسيسي» كثيرًا حين جلس «بيوس»، وهو يضحك ضحكًا مكتومًا ويقول: أكثر من ألف شلن، لماذا؟ إنه مبلغ كبير من المال.

– ليس كبيرًا وخاصة أنك كنت متوقعًا أكثر من ذلك.

– نعم، لكنني ماذا كنت سأفعل بكل هذه الآلاف من الجنيهات يا بني؟ لقد تجاوزت العمر الذي يحتاج فيه المرء لكل هذه الأموال.

أحضرت «ميريامو» حصيرة إلى الشرفة وجلست مع «سارا» بالقرب من الرجال، ثم صاحت: يا لها من خيبة أمل.

لكن «سارا» تنشقت وقال: أنا أوافق ابن العم «بيوس»، لأنه لن يحسن التصرف مع سبعة عشر ألفًا من الجنيهات، كما أن العائلة بكل أفرادها ستتعلق برقبته إلى الأبد.

تجهَّم «موسيسي» على ذكر عائلة «بيوس» وقال: كان يجب أن أحذرك يا سيدي من أولئك الأقرباء، وها هي مدام «كيفومبي» (قالها وهو يُشير إلى «سارا») ثم توقف لحظة وأضاف: حان الوقت لإيقافهم عن اقتلاع أرضك.

قالت «سارا»: نعم يا «بيوس»، يعوزنا بعض الوقت لإعادة كل شيء إلى مكانه.

علَّق «بيوس» بوهن: أوه، يا عزيزي .. إنها أخبار مخيفة.

– لا تقلق لأنهم سيسارعون بالاختفاء فور إخبارهم بعدم وجود نقود؛ وعندئذٍ سأرسل في طلب اثنين من أبنائي الكبار لمساعدتنا في الزرع.

بادرت «سارا» بالانصراف، ثم نهض «موسيسي» من مقعده قائلًا: إنني خائف ولا أستطيع البقاء هنا طويلًا .. سأذهب الآن مع «سارا» لمساعدتها في توضيح الأمر لتلك الجموع المحتَشِدة في منزلك على أن أعود غدًا لاصطحابك في طريق العودة.

صعد هو و«سارا» إلى السيارة اللاندروفر وظلَّت «سارا» تلوِّح بيديها بقوة حتى اختفت السيارة عن الأنظار.

قالت «ميريامو» مخاطبة «بيوس»: إن بنت عمك امرأة لطيفة.

شعر «بيوس» أن هذه الملاحظة النسائية خاصة به.

عاد «بيوس» مع «موسيسي» إلى منزله في اليوم التالي، وكان كل شيء هادئًا وطبيعيًّا .. قدمت له «سارا» كوزًا من الشاي المغلي، ثم جلست فوق الحصيرة تحت قدميه وراحت تشرح له — بطريقة متشائمة — كيفية إصلاح الأشياء، بينما راح هو بدوره يخبرها عن خططه التي ينوي تنفيذها بنقود الجائزة حتى قال: وبالطبع فإنني لن أقدر على عمل كل شيء الآن خاصة وأنني وعدت «سالونجو» بعمل شيء في المقبرة.

صبَّت «سارا» مزيدًا من الشاي، وقالت: أوه، شيء جميل، لكنني أعتقد أن السقف أكثر أهمية فلقد لاحظت بالأمس أن به فجوات كثيرة، كما أن بناء حجرة أخرى ومطبخ صغير بالخارج تبدو فكرة جيدة خاصة وأن الطين رخيص جدًّا وكذلك الأغصان، وبذلك يستوي المكان وتستطيع — عندئذٍ — أن تتحرك كما تشاء، وأيضًا بالنسبة للدجاج فأنا أملك ست دجاجات من النوع الجيد وديوكًا صغيرة وبعض الفراخ، وسوف أحضرهم إلى هنا.

تطلَّع إليها «بيوس» بإمعانٍ مدة طويلة فأبصرها جميلة، ثم فكر قائلًا لنفسه: ولكن لماذا كل هذا الاهتمام؟

ثم حاول بصعوبة أن يتحدث بطريقة عفوية حين قال: أنت تتحدثين وكأنك ستقيمين هنا.

وقفت «سارا» أمامه وأجابت: ابن العم «بيوس»، دعني أكون صريحة جدًّا معك .. لقد تزوَّج ابني الصغير منذ ستة شهور وجاء بزوجته لتعيش معي وهي فتاة تفيض جمالًا ولطفًا، لكنني بطريقة أو بأخرى لم أتعود وجود امرأة ثانية في المنزل، كما أن ولدي الآخر يعيش في كامبالا وهو يرحب بقدومي في أي وقت، لكنه أيضًا لديه زوجته وثلاثة أطفال؛ وإذن فلن تكون الحال أفضل إذا ذهبتُ إليه؛ وهكذا عندما رأيت إعلانًا صغيرًا في الصحف تذكرت فجأة كيف أنك كنت تساعد كل الناس في يوم زفافي؛ ففكرت بيني وبين نفسي أنك في حاجة لمربية جيدة للمنزل تحفظ لك الأشياء وتعمل على ترتيبها؛ وعندئذٍ سارعت بالمجيء برؤيتك، وأعتقد أنني فعلت الصواب لأنك فعلًا تحتاجني.

تردَّدَت لحظة ثم استطردتْ: ربما تُفضِّل أن تبقى وحيدًا!

قال «بيوس»: أنت امرأة متهورة جدًّا.

وكان هذا كل ما استطاع أن يقوله.

بعد أسبوع كان «بيوس» يتجول خارج المقبرة حين شاهد «سالونجو» من بعيد مشغولًا بتلميع أسلحة «سابالانجيرا»، وعندما اقترب منه قال الحارس متذمرًا: فكرت أنك فارقت الحياة فقد مضى وقت طويل منذ مجيئك إلى هنا آخر مرة، وعلى أية حال فإن هذه المقبرة يا عزيزي تحترف الإهمال ولا أحد يهتم بأن واحدًا من أبناء «بوجندا» يرقد هنا.

قال «بيوس» بصوتٍ خفيضٍ: كنت مشغولًا بعض الشيء، لكنني أتذكر وعدي لك ولذلك أحضرت لك مائة من الشلنات، أو ليتني استطعت إحضار المزيد، لكن مائة شلن تُساهِم — على الأقل — في شراء قليل من الأسمنت.

تناول «سالونجو» النقود ونظر إليها فبدت وكأن القمل يزحف عليها ثم قدَّم له الشكر بطريقة حاقدة، وقال: من الطبيعي أن تزيد تكاليف الحياة الآن بعد احتفاظك بامرأة في منزلك.

ابتسم «بيوس» بخجلٍ: أعتقد أن «مانتوندو» أخبرتك!

أجاب الحارس: وهل يهم من الذي أخبرني؟ على أية حال لا تقل بأنني لم أحذرك، ولا تنسَ أنها ستطلب خاتم الزواج في المرة القادمة.

ضحك «بيوس» ضحكة غريبة، وقال: في الحقيقة إن أحد الأسباب التي جئت هنا من أجلها هي دعوتك لحفل الزفاف في الشهر القادم.

ألقى «سالونجو» بالرمح الذي ينظفه وراح يحدِّق في صديقه وكأنه أصبح — فجأة — شخصًا آخر، ثم قال: يا لك من أحمق! كنت أعرف أن شيئًا ما سيحدث .. في مثل عمرك هذا كان يجب أن تتمتع بمزيد من الإحساس .. شيء طيب، لكنني لا أستطيع أن أنصحك بشيءٍ سوى أن الفرصة ما زالت بين يديك.

سادت لحظات قليلة ساورت فيها «بيوس» الشكوك، فقال محدِّثًا نفسه: هل تصرفتُ بحماقة بعد كل شيء؟!

ظل يفكر في «سارا» والأعمال العظيمة التي قامت بها في منزله أثناء تلك المدة القصيرة التي قضياها معًا؛ فشعر باطمئنان، وقال لصديقه الحارس: سوف أتزوجها وأتوقع رؤيتك في الكنيسة، وفي المنزل، أما إذا لم تأتِ فإنه يحق لي معرفة السبب.

وكان مسرورًا بينه وبين نفسه لتلك النبرة الحادة في صوته.

اكتسى وجه «سالونجو» بالدهشة، وقال: نعم، سوف أجيء، وقبل أن تنصرف يجب أن تقطع عنقودًا من الموز، وقد تجد بعض الكرنب في الخلف لأجل زوجتك الطيبة؛ لأنها الفائزة الحقيقية.

